

روایات عبر



آت هامبسون

تَحْسِبِينَ الدَّقَائِقَ

www.firas.com

RAYA HEEN



١ - وحدي مع النسر

كانت ترقص فرحاً وهجة وثوبها الطويل يتموج حول جسمها الناعم
الرشيق عندما تقدم منها جويل قائلاً:
- دعيني اراك.

وبينا جويل يقترب منها، دارت أنجده نفسها امام ابواب ضخمة من
خشب السنديان تؤدي الى قاعة دافئة تنبعث منها اصدااء الموسيقى، فانتهى
نحو زاوية وجلسا بعيدين عن مرأى الضيوف العديدين الذين يحضرون
حفلة زفاف.

- قولي احبك.

وبصوت عذب رقيق رقة نسيم الصيف في الصباح اجابت روكسان:

- احبك يا جويل.

كان في عبارتها تلك شيء من الخضوع نتيجة التشدد في الطريقة التي
تشت عليها وازدادت:

- احبك جداً جداً.

وغرقا في عناق طويل افادت بعده عذقة في عينيه الزرقاوين بينما عيناها
تسمان كالنجوم وشفاتها ترتجفان وقلبيها يرقص طرباً. الحياة رائعة...
كيف لا وقد وجدت مثلها الأعلى في الرجل الوحيد الذي احبته وستظل
تحبه. طويل انيق وجذاب، بإمكانه ان يحصل على اية فتاة يشاء، الا انه
احترها هي.

- لا استطيع الانتظار يا حبيبي.

وسجبل طفلة خائفة، انصرف عنه وهي تردد:

- ارجوك... لا تقل هذا يا جويل.

استدار نحوها ليقول:

- افكارك لا تتمشى مع العصر الذي نعيش فيه. لماذا يا حبيبي
مستزوج بعدما اكون وفرت بعض المال. لماذا تنفرين من القليل من الحب؟
عبست لدى سماعها تلك العبارة واجابت:

- اريد ان اعود يا جويل.

لم يكن منه الا ان دفعها نحوه قائلاً:

- انها تلك العجوز السخيفة... نعم هي يا حبيبي. لا تنكري ذلك
ارجوك... تلك العجوز العانس التي لا تثق بأي رجل.

لم تعلق روكسان بشيء. غير ان صورة تلك المرأة امثلت امامها. عيان
رماديتان تتران ماء، ظهر محني ووجه تكسوه علامات التقدم بالسن ويدان
تشكوان آلام الروماتيزم للزمن. كانت ديورا شخصاً محبباً ومحترماً من
العائلة. جيء بها بعد ان توفيت والدتها مباشرة، فرعت ديورا الطفلة
وربتها بالطريقة التي اعتقدتها الافضل.
كانت ديورا تقول لها دائماً:

- الرجل الذي سيحبك سوف يضعك على قاعدة تمثال. وعليك يا
روكسان ان لا تفعلي اي شيء ينزلك من ذلك المكان. فمهما يكن حب
الرجل ثابتاً، فذاكرته تبقى ثابتة بالقدر نفسه. سوف يبقى يدلك ما دمت
جالسة في المكان الذي وضعك فيه. وان سقطت فانه لن ينسى ذلك ابداً.
ضحك جويل من هذا الكلام مذكراً روكسان بأن عمرها تسعة عشر
عاماً وبأنها سيدة نفسها وعليها ان لا تصغي لا الى مربيها العجوز ولا حتى
الى والدها. الا انه ليس بإمكان المرء ان ينسى بسهولة علاقة تعود لسنوات
عديدة خللت. ان احترامها لوالدها وخشيتها منه هما الآن بالقوة نفسها مثلاً
كانا عند طفولتها، ولذلك لا تستطيع ان تفعل شيئاً لا توافق عليه ديورا،
الأمر الذي يجعلها تعارض محاولات جويل في اقناعها.
وردت:

- اريد العودة.

عندها امسكها جويل بذراعيها وانجها معاً نحو القاعة الكبيرة في الفندق
حيث كانت تؤدي فرقة موسيقية معزوفة فالس، والضيوف يقهقهون

ويتحدثون وهم يرقصون.

كان الوقت بعد منتصف الليل، وبينما وقفت روكسان امام المرأة تغير
ثيابها، اذا بالباب يفتح وتدخل المرأة العجوز. ابتسمت روكسان وقالت:
- اني سعيدة جداً يا ديورا.
فاجابت:

- جئت فقط لأقول لك تصبحين على خير. لقد سمعتك تدخلين.
ومشت ديورا بهدوء لتقف في منتصف الغرفة وتتأمل، بعينين رماديتين
شاحبتين، وجه روكسان المتوهج.
- ما زلت مستيقظة؟ كان يجب عليك يا عزيزتي ان تطفئي الضوء
وتنامي.

فاجابت ديورا:

- اود ان اتأكد من عودتك يا حبيبي.

قالت روكسان:

- عليك الا تقلقي عندما اكون برفقة جويل، فأنا اشعر بأمان معه.
(وبعد فترة من الصمت اردت) هل سمعتني اقول اني سعيدة؟
اجابت ديورا على الفور:

- طبعاً، وهل ادع ذلك يفوتني؟ حتى لو لم تقوله فاني اراه. لقد مضى
على ذلك اسابيع. متى ستزوجين؟
- ليس لدينا المال الكافي... او على الأقل هذا ما يقوله جويل. وهل
تزوج وليس لدي شيء؟

- جويل رجل حكيم. ووالدك يوافق ان عليه ان يوفر بعض المال أولاً.
حولت العجوز نظرها نحو الحائط. تطلعت اليها روكسان عابسة
تسك:

- لماذا تفكرين يا ديورا؟

لرادت روكسان ان تعرف حقيقة شعورها ونظرت نحو العجوز ثم
هزت رأسها اذ تذكرت ان ديورا لم تحب جويل في بادئ الأمر.
وايتمت ديورا قائلة:

- ليس مهماً يا طفلي.

انحطت روكسان تتأمل ديورا برفق. وجه زادته السنون قبحاً، وبشرة

مرتحية وخدان تظهر فيهما الشرايين الحمراء مثلما تظهر الطرق على الخرافات،
وشعر ابيض مجدول من الخلف. تقدمت منها ديبورا وبشتين باردتين
خاليتين من أي لون قبلتها قائلة:

- تصبحين على خير يا عزيزتي، واحلاماً سعيدة.

احلام سعيدة... امنية مألوفة، تسمعها روكسان منذ وعت الحياة.
اغلق الباب بهدوء خلف المرأة العجوز. نظرت روكسان في المرأة مرة
اخرى وراحت تتأمل نفسها. جسم نحيل متواز بشكل تام، وجه جميل،
خدان لم تبخل عليهما الطبيعة، عنق طويل منحني قليلاً وجبهة خالية من
الخطوط. كتلة من الشعر عسلية اللون فوقها ظلال جميلة نحاسية تتدلى على
كتفين بيضاوين ناعمتين. عينان بنفسجيتان تقبتان تشعان كالنجوم
بسعادتها الداخلية. الحياة جميلة. قالتها لنفسها مرة اخرى.

وبعد اسبوع، وبينما هي تتحدث الى جويل، فاجأها بالقول:

- انا ذاهب الى لندن من قبل الشركة التي اعمل فيها يوم الاربعاء، ولن
اعود قبل الاثنين.

فهتفت:

- اوه...

ولبرهة شعرت بأن غيابه سيطول لسنة واكثر.

- سوف اموت.

ابتسم جويل، وبرفق وضع يده على خدها وقال:

- أمل يا حبيبي، ان لا تفعل ذلك.

- لن تحضر حفلة كليلر اذن.

- كلا يا عزيزتي. لكن عليك انت الذهاب.

اجابت على الفور:

- لن اذهب الى اي مكان بدونك.

فقال باصرار:

- ليس هناك من سبب يدعوك لعدم الذهاب. لا يجب ان تحللي كليلر
فهي صديقتك قبل ان تكون صديقتي.

صحيح. فكلاهما درس في المدرسة ذاتها وهي التي عرفت جويل اليها.

- نعم، اعتقد انه يجب علي ذلك.

عندما كانت ترتدي ثيابها للذهاب الى حفلة عيد ميلاد كليلر مساء يوم
سبت، لم يكن لدى روكسان اي اهتمام بما تفعل. ان تلبس من اجل
جويل فهي مسألة مختلفة تماماً. وبعدما انتهت من ارتداء ملابسها ووقفت
بم والدتها وديبورا اللذين ابديا اعجاباً كبيراً بها احست بشيء من
راحة.

- جاهزة يا عزيزتي؟

قالت والدتها الذي كان بانتظارها ليأخذها بسيارته، ثم اضاف:

- تبدين جميلة جداً.

احمرت وجنتاها قليلاً ثم شكرته على ملاحظته. كانت تشعر دائماً
لارتباك كونه رجلاً عسكرياً، طويل القامة، مستقيماً صارماً. فينه وبين
ديورا، وافكارهما المشددة في التربية، تكونت لدى روكسان ميزة الطاعة
لعزيزية. ففي حالات كثيرة كانت تنور على ذلك بهدوء أمله ان تصبح من
نساء نفسها مبالغة الى التوكيد والحزم. وكانت تفكر، بانها عندما تتزوج
سوف تنمو حريتها الشخصية اذ ان جويل لن يكون ابداً مستبداً لهذه
الدرجة فيحاول اخضاعها وقهرها.

وعندما اقتربت السيارة من فندق فورتونا الرائع قال الوالد:

- سأعود في حوالي الساعة الحادية عشرة. تكونين جاهزة في هذا الوقت؟

أعرت روكسان ان الطريقة التي قال بها ذلك كانت اقرب الى الأمر منها
الى الطلب. فوالدها يجب دائماً ان يأوي الى فراشه قبل منتصف الليل،
يعودته لاصطحاب روكسان مسألة تعتبر في الواقع تنازلاً منه، وهي تقدر
على ذلك. وعند دخولها القاعة تقدمت كليلر منها مرحبة:

- أهلاً روكسان. انا متأسفة لعدم تمكن جويل من الحضور.

اجابتها:

- انا ايضاً تأسفت جداً لذلك.

وخفضت صوتها وقد تسلط نظرها على عينين داكنتين كانتا تحدقان فيها من
خلف القاعة البعيد. لم تستطع ان تحول بصرها عنها، وشعرت للوهلة
الاولى بانها وقعت ضحية تينك العينين المتفرستين.

- من... من يكون هو... هذا؟

قالتا بقم جاف وصوت مرتجف خافت. اخبرتها كليلر من يكون، الا

ان روكسان لم تنتبه . لأن كل ههما كان مركزاً على ذلك الرجل الذي لم يحول
عينيه السوداوين عن وجهها الصامت وحركات جسمها النحيل .
ارتجفت ، وبصورة عفوية وضعت يديها حول كتفيها للكشوفتين . شعرت
بانها ترتجف بالفعل ، وبان اعصابها توترت . ورغم ذلك استطاعت ان
تسجل في ذاكرتها بعضاً من ملامحه الطاهرة . . . قمة طويلة وجسم رشيق
وبشرة برونزية وشعر قصير لامع وجبهة مليحة بالتجاعيد وشفاة رقيقة في
وجه يوحى بالقساوة والغلظة . انه الشرير . هكذا فكرت بعد ان
غمرتها رعدة اخرى . لماذا حلق فيها هكذا ؟ ولماذا لم تستطع ان تحول
نظرها عنه ؟ ومن تراه يكون ؟ انحلت كليز صديقتها جانباً وهي تنظر اليها
غرابة لتقول :

- انه دون خوان ارماتندو راميريز . يبدو انك كنت به ؟

حولت روكسان نظرتها المحدقة لتسأل :

- لانه . . . انه غير اعتيادي . أهو اسباني ام برتغالي ؟

اجابت كليز :

- كلا . هو من المكسيك .

- وكيف تعرفت اليه ؟

وضعت كليز ذراعيها حول روكسان واتجهتا نحو شلة من الأصحاب ثم
تابعت روكسان :

- لم تذكره ابداً من قبل .

اجابت كليز :

- انني لا اعرفه . فهو صديق لمارتن الذي تعرف اليه خلال رحلته في
شهر تشرين الثاني / نوفمبر الماضي .

- صديق لأخيك ؟ وهل يمضي فرصته هنا ؟

شعرت روكسان عندما سألت ذلك ، بقليل من الاحراج اذ ان مارتن
كان يود كثيراً ان تكون صديقه ، وعندما رقصت ، تركها واخذ يسافر من
مكان لآخر . تذكرت الآن انه كان قد كتب لاخته كليز يعلمها بانه متجه الى
المكسيك عن طريق الولايات المتحدة .

واجابت كليز :

- اعتقد ذلك . مساء امس فقط علمت بانه قادم الى الحفلة . وكما

تعلمين مارتن يسكن في شقته الخاصة الآن . اتصل بي هاتفياً ليخبرني بانه
قادم بصحبة احد الاصدقاء هذه الليلة .

ثم هزت كليز كتفيها استهجاناً وتابعت :

- تعرفين مارتن فهو غريب الأطوار في كل ما يعمل . اي اخ آخر عداه
يذكر على الأقل اسم الصديق الذي سيصطحبه معه . لقد ارتعدت عندما
رأيت خوان هذا . . . انه يذكرني بكل ما هو شرير .

حدقت روكسان في عيني الرجل . انه غير حقيقي . عضلات وجهه
جامدة وعينه الداكنتان تحدقان فيها من الجهة المقابلة . استطاعت اخيراً ان
تحول نظرها عنه لتقول :

- قلت نفس الشيء عندما رأيته . انه صنف غريب من الرجال .

وبصوت خافت قالت كليز :

- قبل لحظات حصلت على بعض المعلومات عنه من مارتن سأخبرك
اياها فيما بعد ، عندما تنفرد ببعضنا .

وتطلعت نحو الضيوف مبتسمة :

- اهلاً بكم جميعاً ، انا ممتنة لحضوركم .

ومن الطرف الآخر قالت إحدى الحاضرات وتدعى غليندا هارنتيت :

- شكراً لدعوتك هذه .

ثم صمتت وسألت :

- بحق السماء ، من يكون المخلوق الواقف هناك ؟

اجابها احد الحاضرين :

- صديق لمارتن من المكسيك .

- انه لا يجيد الاختلاط بالناس . لماذا لا يأخذه مارتن ويعرفه الى
الحضور ؟

اجابت كليز :

- اعتقد انه سيفعل . مارتن يتكلم على الهاتف الآن وسيعود بعد لحظة .

وقفت روكسان صامدة بينما الآخرون يتناولون اطراف الحديث وهم في
طريقهم نحو القاعة . كانت ما تزال متوترة الاعصاب وازداد ذلك التوتر ،
وازدادت معه ضريبات قلبها عندما لمحت مارتن يتقدم نحوها مع ذلك
الرجل الغريب . تولت كليز تقديمهما لبعضهما البعض ثم غادرت المكان .

شعرت بالحكام قبضته على يدها، وبسمة رقيقة. قالت بتهذيب:
- تشرفت بمعرفتك.

فاجابها بصوت هادئ، عميق النبرات:

- انا مسرور بمعرفتك يا آنسة هاتون.

بقيت يد روكسان في يد ذلك الرجل مدة فشعرت ان صديقاتها يراقبن ذلك وهن على وشك الانفجار بالضحك. احمرت وجتها وهي تحاول سبر غور نظراته عندما قال:

- يجب ان نتكلم سوية فيما بعد.

كانت على وشك ان تساله السبب لو لم يقاطعهما مارتن ليقدمه الى شخص آخر.

وبعد قليل وجدت نفسها واقفة بالقرب من كلير حيث الجميع يتناولون المأكولات الباردة فقالت:

- اخبريني كل شيء عن ذلك الرجل.

اجابت كلير:

- دون خوان؟ ما لدي هو بعض المعلومات الممتعة التي حصلت عليها من هنا وهناك. يقال بأن اصله يرجع الى إحدى الجماعات التي كانت تغزو وتتهب وتقتل. خوان لم يخبر اخي بهذه المعلومات غير ان مارتن حصل عليها من احد الاشخاص عندما كان يزور خوان. فاشخاص مثل خوان يظهرون من وقت لآخر بين عائلات بتسم افرادها بالوسامة. الا ان هذا ليس كل شيء... كان لخوان خطيبة رائعة الجمال توفيت فيما بعد، فألمه ذلك اشد الايلام وانغلق على نفسه ومزرعته حتى انه لم يسمح لأحد سوى الخدم، وما اكثرهم عنده، بالدخول والخروج. هذا ما قاله مارتن.
وبعد تفكير قالت روكسان:

- انها قصة حزينة. الا انني لا استطيع ان اتصور اي فتاة توافق على الزواج منه في الدرجة الأولى... انه مخيف.

هزت كلير رأسها قليلاً ثم قالت:

- اوافقك على ذلك. غير ان مرارته هي التي تسيء اليه من ناحية أخرى، هنالك امور تبدو جذابة في شخصيته وهي صرامته وشفته الرقيقتان.

اوملت روكسان برأسها علامة الموافقة ثم سألت:

- اذا لم يسمح لأحد بدخول مزرعته فكيف استطاع مارتن الاجتماع به؟
اجابت كلير:

- انها قصة غريبة. كان مارتن يمر امام المزرعة في يوم من الايام عطشاً، وعندما وجد بوابة القصر مفتوحة دخلها فلمحه خوان الذي كان يتمشى في الحديقة في تلك الساعة. ثار عليه في بادئ الامر، الا انك تعلمين كم مارتن لبق وفائن. والنتيجة، انه بعدما انتهى من شرب الماء طلب منه خوان ان يمضي بعد ظهر ذلك اليوم معه ليستحم ويرتاح قليلاً. ثم الح عليه في البقاء وتناول العشاء. بقي مارتن بضيافة خوان ثلاثة ايام، وبقي بعد ذلك على اتصال مستمر واتفقا على ان يقوم خوان بزيارة مارتن في انكلترا حالما يعود الأخير اليها. واثبت تعلمين ان مارتن عاد منذ اسبوعين فقط. اذن خوان لم يضع وقتاً طويلاً في الانتظار.

قالت روكسان بعبوس:

- الأمر يظهر غريباً بالنسبة الي. كيف ان خوان المتنسك لهذه الدرجة، لم يتردد في المجيء الى هنا؟

- هذا الأمر حيرني انا ايضاً.

ثم اضافت كلير:

- ان مارتن فرح جداً بمجيء خوان. قال انه من الصعب التصور كيف ان رجلاً كهذا ينقطع عن العالم الخارجي من اجل حب ضائع.

قالت روكسان:

- لا استطيع تصور ذلك ايضاً.

اجابت كلير:

- بالعكس... فان رجلاً من هذا الصنف يحبون بعمق ومرة واحدة في حياتهم.

استمت روكسان، وسألت بصوت جدي عن الوقت الذي مضى على وفاة خطيبته. اجابت كلير:

- عشرة اعوام.

- وهل امضى كل هذه السنوات يعيش حياة نكدية؟ انا لا اصدق.
اكدت لها كلير:

- هذه هي الحقيقة. كان عمر خوان ثلاثة وعشرين عاماً عندما حدث ذلك. توفيت خطيبته خلال اسبوع في المستشفى بعد تعرضها لجرثومة مميتة. فاصبح خوان على اثرها في وضع لم تنفع معه اية مواساة مما جعل البعض يعتقد انه سيستحر.

هزت روكسان رأسها وقالت:

- انه اقوى من ان يفعل ذلك.

قالت كلير:

- اوافقك على ذلك. الا ان الرجل الذي اخبر مارتن بالقصة عندما كان في مزرعته، قال ان جميع الناس هناك توقعوا موت خوان.

ثم علقت روكسان قائلة:

- لقد كان هذا الرجل كريماً بمعلوماته تجاه هذا الغريب.

اجابته كلير:

- الجميع علموا بأمر ذلك الانكليزي الذي دخل المزرعة ونزل بطريقة لا تصدق ضيقاً على صاحبها. تناقل الخدم ذلك الخير على ما اعتقد، الأمر الذي جعل ذلك القروي يسخو في تزويد مارتن بتلك المعلومات، ربما بهدف اخراج مارتن من المزرعة. الا ان هذه الخطوة لم تنجح لأن مارتن كان يعلم ان خوان سوف يغضب ويمتعض اذا علم ان ضيفه يحاول كشف اسراره الشخصية بعد استضافته له.

وحارت روكسان بتفكيرها. هدأت اعصابها قليلاً ثم توقفت عن التلفت حولها كيلا يقع نظرها مرة اخرى على خوان فتأثر به كالسابق. ثم تمتمت:

- في الواقع انها قصة غريبة وعذبة. فالمرء لا يسمع كثيراً عن هكذا اشياء.

- ان شعار هذه الجماعة التي ينتمي اليها خوان هو النسر الأسود...

وعندما يولد طفل جديد يكنونه حالاً بالنسر الأسود.

لدى سماعها ذلك، اهتزت روكسان بعنف. لو ان صديقتها بقيت صامته ولم تفه بذلك! عادت تسأل:

- هل الرجل نفسه هو الذي اخبر مارتن بهذا؟

- طبعاً. مارتن لم يتحدث الى احد سواه.

حدثت روكسان في تبتك العينين السوداوين الحادثتين، ففارت اعصابها مرة اخرى. تقدم خوان طالباً منها الرقص معه، وقيل ان تفوه بكلمة الرفض وجدت نفسها بين ذراعيه على الحلبة. وبعد قليل قال:

- ترقصين بخفة يا آنسة هاتون. فهل تفعلين ذلك كثيراً؟

اجابت على الفور:

- ليس كثيراً. اذهب الى الحفلات. وفي بعض الاحيان ياخذني صديقي الى نوادي الرقص.

مضت لحظة وجوم غريبة تابع خوان بعدها:

- صديقك؟ اخبرني عنه.

تطلعت روكسان اليه ثم عبست قليلاً. يظهر ان الرجل معجب بتعابيرها. قالت:

- متأكدة انك لا تريدني ان احدثك عنه.

اجاب بسرعة:

- على العكس. انه شيء ممتع. هل انت غطوبة؟

هزت روكسان رأسها واجابت:

- ليس الآن. لكننا ننوي الزواج فيما بعد.

تقومت شفاته قليلاً. وبابتسامة اعتقدتها روكسان نتيجة فكرة خاصة خطرت على باله قال:

- متى تنويان الزواج؟

اجابته:

- بعدما يكون جويل قد وفر المال الكافي لذلك.

سأل خوان:

- وهل المال مهم لهذه الدرجة؟

فاجابه بسذاجة:

- ليس بالنسبة الي. اتزوج الآن اذا وافق جويل.

حذق خوان في وجهها المتوهج وقال:

- لا بد ان تكونا متحايين جداً.

- طبعاً، والا لن اكون مستعدة للزواج من جويل.

وبعد لحظة صمت طويلة، شعرت روكسان انه يوميء برأسه وقد شرود

ذهنه ولمحة من الاكتئاب بدت عليه . وتساءلت عما اذا كان يفكر بخطيبته .
وعاد يسأل :

- منذ متى تعرفين جويل ؟

غريب ان يكون مهتماً بهذا الأمر الى هذه الدرجة . شعرت روكسان
بالتردد في الاجابة على جميع اسئلتها التي يهدف من ورائها التعرف اليها .
كانت تنقصها قدرة الرفض ، لذلك قررت الاجابة عليها كلها فقالت :
- ثلاثة اشهر فقط .

ردد عبارتها وكأنه يتحدث الى نفسه :

- ثلاثة اشهر . . . ليست مدة طويلة ابداً .

تمت روكسان اذذاك لو تمكن من استعادة هدونها فكلماته تلك
جعلتها ترتعد وتشعر بخوف داخلي تعذر عليها فهمه . وبصعوبة قالت :
- هل تسمح ان نتوقف عن الرقص . . . فانا اشعر ببعض التعب .
لمعت عيناه الداكنتان ثم ما لبث ان خبا بريقهما والغم النحيف ضاق
قليلاً . أما روكسان فسرت لموافقة خوان على طلبها بمغادرة الحلبة ، غير انها
ستكون مخطئة ان اعتقدت بانها تستطيع ان . . . منه .

- يجب ان نتكلم .

وقادها الى زاوية ليجلسها الى طاولة تتسع لشخصين واردف قائلاً :

- انت جميلة جداً . كم عمرك ؟

لم يكن لدى روكسان القدرة على السكوت فاجابت :

- تسعة عشر عاماً .

تنهد بعمق وقال :

- انه اجمل سن للمرأة .

فادركت غريزيا ان عمر خطيبته كان تسعة عشر عاماً حينما توفيت .
وعاد يقول :

- عيناك لونهما غير اعتيادي ، بين البنفسجي والأزرق . لونهما يتغير . . .

هل لاحظت ذلك ؟

فأجابت بخجل انها تعرف ذلك ثم اضافت :

- جويل يحبها .

لم تدر لماذا قالت ذلك ، ربما ذكر اسم جويل يمنحها الحماية . . . ولكن

ضد من ؟

ومن غير ان يعلق على ذلك استمر خوان بالتغزل فيها قائلاً :

- وشعرك ايضاً غير اعتيادي . . . هذه المسحة النحاسية . . .

شعرت روكسان ان خوان لم يكن معها ، بل كان يفكر في الماضي
البعيد . وتساءلت عما اذا كانت الألوان التي تحدث عنها هي ألوان شعر
وعيني خطيبته ، وفجأة صار هناك سبب لاهتمامه .

- شكلك . . . وجهك . . .

اصبحت روكسان باردة كالثلج ، وبغير اتران ، وقفت لتقول :

- اود العودة الى الآخرين . . . ارجوك ، خذني الى هناك .

تطلع نحوها بتعجب سائلاً :

- ما بالك . . . هل انت مريضة بالفعل ؟

وخامر خوان شعور بانها تكذب عليه اذ انها اخبرته قبل قليل بأنها تعب .

- اني تعب . . . تعب فقط .

اجاب على الفور :

- تعب من رفيقي ؟

وبذهول اجابت :

- لا . طبعاً لا . انني احب العودة الى الآخرين .

- حسناً يا آنسة هاتون . ربما نرقص معاً في وقت لاحق .

- انا . . .

كانت ترد كثيراً ان تقول لا ، لكن كيف لها ان تفعل ذلك ؟ ليت جويل
كان حاضراً . ليتها رفضت المجيء الى هنا من دونه . الا ان جويل لم يكن
هناك وهي وحيدة مع هذا الغريب . هذا المتنسك الذي مجرد تعرفه الى
مارتن تحل عن تنسكه وجاء الى انكلترا حيث التقى روكسان التي تشعر في
هذه اللحظات بان سيفاً مسلط فوق رأسها .

ويكلمات ناعمة ، تبدو فيها عاطفة غير واضحة قال :

- مم تخافين يا آنسة هاتون ؟

هزت رأسها علامة الحيرة وقالت :

- لا اعرف .

التقى نظرة عميقة على عينيها ثم قال :

- انت خائفة اذن.

بغوية اومأت برأسها علامة الموافقة. فعاد يسأل:

- لماذا يا طفلي... لماذا؟

طفلي... كلمة غير عادية تأتي من رجل غريب.

اجابت وهي ترتجف:

- في الواقع لا اعرف لماذا. اعتقد ان اعصابي ليست هادئة هذا المساء.

قال باصرار:

- هل انا سبب عدم هدوء الاعصاب هذا؟

مرة اخرى طريقة غير عادية في الكلام، وجدت روكان نفسها غير

قادرة عل الاجابة. الا انها اضطرت اخيراً لمصارحته بالقول:

- لم اقابل شخصاً مثلك في حياتي.

لم تكذب تنتهي من عبارتها حتى لمحت موجة من السخريّة عملاً عينيه

القاسيتين ثم سمعته يقول:

- تهدئيني غريباً بالنسبة الى اهل بلدك الذين يتحلون بالوسامة

والجمال.

لم تتوقع روكان ان يكون خوان فظاً الى هذه الدرجة فشعرت بالحيرة

ثانية وقالت:

- انت مختلف عنهم... طبعاً.

قالت ذلك، لتفهمه بطريقة غير مباشرة، انه ليس وسيماً مثل اصدقائها

الآخرين.

ألقي خوان نظرة حادة، ادركت على اثرها انه ليس منخدعاً بمظهره

وشكله. وبعد صمت قصير قال بصوت هادئ:

- اتريدن العودة الى صالة الرقص؟ لن اطلب منك ان ترقصي معي

مرة ثانية اذا كان ذلك متعباً بالنسبة اليك.

كان في صوته بريق امل فحول قلب روكان الرقيق نحوه، وهي تفكر

في الخطيئة التي عسرها خوان، وكيف يكون شعورها فيها لو عسرت هي

جوجل. ثم اجابت باندهاش:

- لا... لا تكل هذا يا سيد... احبي دون... يا الهي... كيف

اعطيك؟

ضحكت قليلاً وهي تقول ذلك وشعرت بالراحة عندما توجه اليها
ليقول بلطف:

- خوان يكون سعيداً جداً عندما يأتي ذلك منك.

استدارت بخجل وهزت رأسها قائلة:

- اوه... لكن... لكن هذا ليس صحيحاً.

- لا ارى اي سبب يجعله غير صحيح. ناديني خوان.

قال ذلك بصوت ناعم، فكررت بعده:

- خوان.

ثم اردف:

- كنت على وشك ان تقولي شيئاً يا... روكان.

لفظ اسمها بطريقة جميلة ادهشتها واربكها في الوقت نفسه واجابت:

- صحيح؟... نعم، نعم، ما احببت قوله هو ان الرقص معك لا

يتعني ابداً.

- ابداً؟

والتفت عيناها بعينه فقال:

- في هذه الحال سوف ادعوك للرقص فيما بعد.

هزت برأسها علامة الموافقة. ثم وقف الى جانب الطاولة مفسحاً لها

القيام عن كرسيها. وبينما هي تحاول الخروج ضربت رجلها بقدم الطاولة.

وما ان سمع خوان صرختها حتى وضع يديه حولها وقادها الى الخارج

مضجراً:

- هل تأذيت يا طفلي العزيرة؟

- انه ألم مؤقت ويزول.

قالت ذلك بصوت عميق مرتجف، شاعرة بلمسات ودفء يديه على

كفيها، وبوجهه الأسمر المنحني عليها وشفتيه القريبتين من شعرها.

٢ - الشرك

تقع مزرعة راميريز على تلة تطل على واد اخضر جميل من جهة، ومرقعات سيارا مادرا من الجهة الاخرى. تسمرت عينا روكان في تلك المرتفعات وهي لا ترى شيئاً سوى صورة حبيبها جويل. كانت الصورة تلك معلقة في ذهنها ومسيطر على غيلتها منذ اللحظة المشؤومة التي تقرر فيها زواجها من خوان. فحياة أمله المريرة، واحتجابه، واخيراً تسليمه بالأمر الواقع سوف تبقى كلها شاخصة امامها حتى الموت. كانت تعرف ذلك من دون شك. وفيها هي مسمرة امام ذلك المشهد جاء صوت زوجها لينبئها بأن العشاء جاهز. استدارت لتجد خوان واقفاً بالقرب منها واضعاً إحدى يديه في جيب سترته. سألتها:

- لماذا تقفين هنا طوال الوقت؟ ماذا يشغل بالك يا روكان؟ كانت دائماً مطيعة، وبسبب تلك الطاعة اسرعت بالزواج من خوان. اما الآن فتشعر انها قد بدأت تستعيد قسطاً من ثقتها بنفسها وأنه لا بد ان يأتي اليوم الذي تتمكن فيه من التخلي عن زوجها، الذي بسبب شبهها لحبيبتها التي قضت، وضعها في موقف الاختيار بين الخزي لنفسها وبين الزواج منه، فاختارت الأخير، لأن والدها فرض عليها الزواج من خوان، ولأن ديورا اخبرتها ان عليها ان تتزوج من خوان، ولأنها علمت ان جويل لن يتزوجها اذا عرف ما حدث. هذا ما كان الجميع يؤمنون به، غير انه لم يكن صحيحاً، فخوان اوقعها في الشرك أولاً ثم عرض عليها الزواج...

اجابته بقولها:

- اعتقد ان بإمكانك ان امضي وقتي كيفما اشاء.

كلمات فيها من المغامرة الكثيرة، ترددها صبية نشأت على طاعة الكبار، وزوجة افقدت زوجها الصبر اكثر من مرة فأسمعها اشياء لم تحب سماعها. ومضت تقول:

- الفضل ان اكون هنا لوحدي.

- وليس مع زوجك؟

- استدارت نحوه لتجيب بجرأة:

- نعم افضل ان اكون هنا بدون زوجي.

- رمقها بنظرة سريعة وهو يسأل:

- هل تعلمين يا روكان كم من الوقت مضى على زواجنا؟

- ازداد شحوب وجهها وهي تجيب:

- كيف لي ان انسى. شهران وثلاثة ايام و... (ونظرت الى ساعة يدها

قبل ان تضيف) واثنان وعشرون ساعة.

تحول عنها بسرعة فشعرت انه يريد اخفاء تعابير وجهه عنها.

قال:

- نحسين الساعات يا روكان؟

- سأظل احسبها حتى اموت... وانمى ان لا يطول ذلك.

لم تقصد ما قالت بقدر ما كانت تقصد ابداءه، ولكي تجعله مدركاً لغدره

وللتناجج المريرة التي تسببت عن ذلك. ارادته ان يتذكر ان جويل هو الذي

تحب، وليس ذلك الرجل الأسمر الشبيه بالنسر، الذي يأتي اليها كل ليلة

متعجرفاً طالباً ودها.

ويلهجة آمرة قال:

- لا تقولي شيئاً كهذا!

وسرعة انتقلت روكان بافكارها نحو مارتا وصورتها التي شاهدتها مع

تلك العجوز الشمطاء التي يسمونها مديرة المنزل. تلك العجوز التي نذرت

حياتها لمارتا وكرست وقتها لجمع كل ما خلفته وراءها. وقال

زوجها:

- لن نموت. لن نموت قبلي... لن ادعك.

وتقدم نحوها فتراجعت الى الوراء، الا انه استطاع الامساك بذراعها

وهزها كما فعل مرات عدة من قبل. وصاح بها.

- لا تقولي ذلك، اسمعيني؟ لا تذكر الموت ابداً مرة أخرى.
كانت روكان تقف امامه مرتجفة وقد ابيضت شفتاها فارخت ذراعيها
وقررت عدم المشاكسة وبأنها ستكون في يوم من الأيام أكثر ثقة بنفسها.
ندمت على ما فعلت اذ انه لن يفيدنا بشيء سوى توسيع رقعة الخلاف
الحاصل بينهما. ثم قالت بصوت مخنوق وعينين دامعتين:
- لنذهب الآن قبل ان يبرد الطعام.

استدار وراح بخطو بسرعة بينما روكان وراءه تسير ببطء وهي تتأمل
البيت وذلك البستان الذي عاد اليه بهاؤه وبجمله بعد ان اهمل ست سنوات
متواصلة. كان المنزل قصراً مؤلفاً من طابقين، ذا نوافذ واسعة فرنسية
الطرز، مزينة بأقواس من زهور البوغنفيلية وفناء حافلاً بالرسوم المغربية
وواجهة يعود تاريخ بنائها الى القرن السادس عشر، بينما قناطر السقوف
متنقة والأبواب محفورة والمفروشات لا تعكس درجة ثراء صاحبها ابداً.
دخلت اخيراً الى غرفة الطعام آتية من الطابق العلوي حيث كانت
تغسل يديها ووجهها وتمشط شعرها. فسالها خوان الذي كان ما يزال واقفاً
يتنظرها:

- اين كنت؟ لقد مضى ربع ساعة على دعوتي لك.
اعتذرت وبعد ان سحب لها الكرسي ليجلسها عليه كما كانت عادته
دائماً، اجابت:
- لم لاحظ انني اخلت كل هذا الوقت.
التقت عينها بعينه وقال بصوت ناعم:
- انتهي يا روكان فلصبري حدود. ارجو ان تكوني قد ادركت ذلك
الآن.

بدأت بتناول الطعام الذي وضعه الخادم لويس امامها وهي شاحبة.
انتهيا من الطعام دون ان ينس احد منهما بكلمة. ثم غضت ترافق خوان
الى حجرة الجلوس ليحتسب القهوة. كان الوقت الذي استغرقته تلك
الجلسة طويلاً الأمر الذي جعل روكان تفكر كيف ستحمل آلافاً من
الجلسات المشابهة قبل الهرب من خوان. وبينما هما في غرفة الجلوس اخبرها
بانه ذاهب الى المدينة صباح اليوم التالي لقضاء بعض الأعمال هناك.
وقال:

- ربما تودين مرافقتي يا روكان فانت بحاجة للتغيير وبإمكانك شراء
بعض الثياب.

هزت رأسها بلا اكتراث وقالت:
- لست بحاجة الى ثياب.

وبعد برهة من الصمت عاد يقول:

- يظهر انه ليس لديك ثياب كثيرة. ادعيني اشترى لك بعض الثياب
الجميلة.

ألقت عليه نظرة احتقار واضحة. كانت تلك المرة الأولى التي استطاعت
ان تظهر احتقارها له، واعتبرتها جزءاً من ثقتها المتزايدة بنفسها. واجابت:
- ثياب جميلة؟ من اجل ان تقف امامي لتبدي الاعجاب؟ انا لست دمية
تلهو بها. فكبريائي القليلة تمنعني من ارتداء ثياب تكشف لك اشياء تتمتع
برؤيتها.

لمعت عيناه السوداء فجأة، فتناول فتجانه بيد مرتجفة وقال:

- دمية؟ اهكذا تنظرين الى نفسك؟

- أليست هذه نظرتك الي؟

لم يجب فوراً لانه اعتبر كلامها مسيئاً لكرامته. واخيراً سالها:

- وكيف تعرفين ما يجوز بفكري؟

- افترضت انك عنيت الاشياء التي ترتديها النساء من اجل ازواجهن.

علق بشيء من السخرية:

- يظهر انك تعرفين نوع الملابس التي ترتديها النساء من اجل

ازواجهن.

ثم اضاف:

- متى تعلمت ذلك؟

- كنت اعرف ماذا يجب علي ان ارتدي من اجل جويل.

قالت ذلك وصمتت برهة تفكر. الكلام الذي قالته ليس في موضعه
ومليء بمخاطرة غير ضرورية. اتسعت عينها عندما لمحت على وجهه
علامات السخط بانتظار رد فعله.

تطلع نحوها وقال بحسرة ظاهرة:

- انظري يا روكان. انك متدمن على هذه الملاحظات المهينة التي لا

توقفين عن ابدائها. انا زوجك، وكلما امرعت في تقبل ذلك تحملين حياتك اكثر راحة وهناك. فلا تركي المخاطر فتندمي.

كانت روكسان تتوقع جواباً عنيماً، وخوفاً من حصول ذلك لم ترد بل صمتت وعادت لتفرغ مزيداً من القهوة من الابريق الفضي الموضوع امامها. وبعد فترة، تكلم خوان بهدوء ليعلمها بأنه يريد ان ترافقه الى المدينة صبيحة اليوم التالي. واصل:

- ومشتريين بعضاً من الاشياء الجميلة التي يحب زوجك ان يراها.

- انت تأمرني بان اذهب الى المدينة برفقتك.

هز رأسه موافقاً واجاب:

- ان كان هذا ما تبغين يا روكسان، اجل، انه امر.

اخذت تفكر كيف سيكون رد فعلها لو انها مثل احدى النساء اللواتي يشتمن بارادة قوية مثل كلير مثلاً. كلير كانت تقول دائماً انها لن تدع رجلاً يتحكم بها. هل بإمكان كلير ان تتحدى رجلاً مثل خوان؟ لا. ليس هناك من امرأة تستطيع ان تصمد امام جبروت هذا الرجل الأسمر، هذا الرجل الذي يدعوه الجميع بالنسر الأسود. وجدت عينا روكسان تتأملان قسما ذلك الوجه الشبه بوجه النسر الذي يكتسي، في قمة الغضب، بقناع شر عميق يجعلها تهرب منه مرتعدة. وكان خوان في تلك الحالات يتركها وشأنها ثم يحاول بعدها اشاعة جو من الاطمئنان حولها ليزيل تلك الصورة من مخيلتها. الا ان شيئاً لم يستطع ازالة تلك الصورة لأنها تعودت ان تلجأ في كل مرة الى امور تذكرها بخيائته لها، تلك الحياة التي كانت تقوي في نفسها الكراهية نحوه ولم تساعد على الاقتراب لحظة من حدود التسامح.

بعد انتهائه من شرب القهوة، نهض عن كرسيه واتجه الى غرفة صغيرة كان يشغلها كثيراً. روكسان لم تعرف بعد ما اذا كانت تلك الحجرة هي للجلوس ام انه يستعملها كمكتب خاص. ولم تهتم ان تعرف. اما هي فذهبت لتقضي وقتها في الحديقة وعادت الى غرفة النوم وجلست قرب النافذة تطالع كتاباً وتستمتع بزقرفة العصافير في الخارج، بينما رائحة الازهار تفوح في كل مكان. كان الوقت ربيعاً، وروكسان جالسة قرب النافذة تمتع النظر بالشجرة القريبة المكسوة ببراعم بنفسجية ماثلة نحو الزرق. وفي البعيد كانت جميع الطرق المؤدية الى المنزل تشبه لوحة طبيعية

تمتزج فيها الالوان بينما الأرض مكسوة بحلة خضراء. وخلف ذلك انتصبت الجبال تعرض صدرها للشمس الدافئة ويفرق تحتها ذلك الوادي الجميل، حيث تبدو مال شاطئ اكابولكو الذهبية، ذلك الشاطئ الذي دعاها خوان لزيارته لكنها رفضت، مفضلة ان تذهب الى هناك بنفسها في يوم من الأيام. في هذه اللحظة سمعت روكسان صوتاً هادئاً ينادياها:

- سنيورا.

كانت ما تزال جالسة الى الطاولة الصغيرة، تسبح في بحر من الأفكار عندما سمعت الخادمة لوبيتا تنادياها فأجابت:

- نعم.

قالت لوبيتا:

- ان كنت قد انتهيت فسوف ارفع الصينية.

فسألتها روكسان باستعلاء:

- وأين لويس؟

فقالت بلهجة وقحة:

- تعلمين يا سنيورا ان هذا اليوم يوم عطلة.

ثم مدت يديها لتناول الطبق، فصاحت بها روكسان:

- لم انته بعد.

تناولت الوعاء الفضي وسكبت بعضاً من بقاياها الباردة في الفئجان:

جهدت لوبيتا في مكانها ثم قالت:

- المعذرة يا سنيورا. هذه القهوة باردة. أتريدين ان اجلب لك غيرها؟

تطلعت روكسان في فئجانها وقالت:

- انها جيدة، شكراً لك. بإمكانك الذهاب الآن.

بقيت عينا المرأة الرمادية اللون مثبتين على روكسان ثم اردقت تقول:

- انت امرأة ذات كبرياء، جميع الانكليزيات كذلك.

لم تعد روكسان تتحمل وجودها اكثر، وبلهجة أمرة وصوت بدت نبراته عالية ومختلفة صرخت قائلة:

- اخرجي من هنا، ولا تعودي الا بعد ان اغادر الغرفة.

برمت العجوز شفتيها، وقامت بانحناءة وغادرت الغرفة. تبعها روكسان في الحال واغلقت الباب خلفها، ثم جلست تفكر في ذلك الباب

الذي يقود الى غرفة زوجها. لم ترها من الداخل بعد. تحركت دون تردد وفتحت، فاحدث صريراً جعلها تقف مقشعة، وهو نفس الصرير الذي كان يحدثه في كل مرة يدخل زوجها غرفتها.

وقفت مدة طويلة تتفحص تلك الغرفة... ذلك السرير الخشبي الكبير وتلك الطاولة الموضوعة قرب نافذة تطل على المساحة المحيطة بالمنزل وتشرف على الجبال. دخلت الغرفة اخيراً ووقفت امام الطاولة وعينها تحدقان في درجها الأوسط المغفل، فشده قليلاً واذا به يفتح امامها لتشاهد في داخله مشبكاً ذهبياً لربطة عنق وازراراً ذهبية وملفاً لفت نظرها. تفحصته قليلاً ثم رمته واغلقت الدرج. عند عودتها الى حجرتها كادت تسقط على الأرض فزعاً حينها وقعت عينها على وجه لوبيتا الساخر. قالت لها:

- ماذا تعملين هنا؟ اخرجي فوراً!

فاجابت لوبيتا:

- لقد جئتك يا سيورا بالبريد الذي وصل الآن. رسالتان موضوعتان على طاولتك.

التفتت روكسان نحو الطاولة الموضوعة في زاوية الحجرة وقالت:

- شكراً.

ثم اشارت عليها بالخروج. فقالت العجوز:

- فضولك دعاك لمعرفة محتويات ملفك الدون خوان.

وقبل ان تحبب روكسان اضافت لوبيتا:

- انها صوريا سيورا... صور.

ثم تركت الغرفة واغلقت الباب خلفها دون ضجة. ألقت روكسان بصعوبة نظرة على باب غرفة خوان وهزت كفيها، ثم اتجهت نحو الطاولة واخذت رسالة ديورا وبدأت تقرأ:

عزيزتي روكسان:

«أمل ان تصل رسالتي هذه وانت تتعمين بالخير والسعادة. حزنت بعد قراءتي رسالتك الأخيرة الا ان والدك وانا، لم نشعر بالندم على ما قمنا به. هناك يا عزيزتي، طريق واحدة صحيحة، وهي ان تزوجي الرجل الذي تستطيعين ان تمنحيه نفسك. ليس بمقدورنا عمل شيء رغم السعادة التي

كانت تغمرك مع جويل. بالمناسبة قام بزيارتنا يوم الجمعة عندما كان والدك في رحلة عمل في الخارج. لم يذكرك ابداً. وجدته هزياً أكثر من الماضي. اعتقد ان صحته ستعود اليه... الرجال عادة هكذا. انتهي لنفسك يا طفلي واكتفي قريباً.

المحبة لك دائماً

ديورا

كان هذا كل شيء. عضت على شفتها بقوة محاولة بصعوبة صد دموعها واخذت ترثي حالها، اذ شعرت بأن الجميع هجروها في ساعة احتياجها اليهم. كانت في حاجة الى رسائل من الأهل تشعرها بالقليل من الراحة. كان بإمكان ديورا ان تقول أكثر. اعادت روكسان قراءة الرسالة وفي هذه المرة لم تستطع حبس دموع حارة. اعادت الرسالة الى الظرف وبينما هي تهم بفتح رسالة والدها اذا بها تسمع حركة في غرفة خوان. وقبل ان تقف لتستطلع السبب، انفتح الباب واذا بزوجها يقف فيه ويسأل بحيرة:

- هل كان احد هنا؟

هزت روكسان رأسها وقالت:

- لا. لا افهم ماذا تعني؟

- دقت لوبيتا على باب مكثي لتأكد من وجودي هناك. في تلك اللحظة

كان شخص ما في غرفتي استطاعت ان تسمع خطواته من غرفة الجلوس. مرت برهة صمت، وهي تفكر بالصورة وتستعيد بسرعة ما حدث وقالت:

- وهل بإمكانها سماع اصوات كتلك بوضوح؟ فسقف حجرة الجلوس عال وغرفتك مغطاة بسجادة كثيفة. لا بد ان حاسة السمع لدى لوبيتا فوق العادة لتشعر بوجود احد ما، في غرفتك.

- انا نفسي اعتقدت ذلك غريباً. وكما تقولين، يجب ان يكون سمع لوبيتا فوق العادة.

ثم هز كتفيه علامة اللامبالاة وتراجع مغلقاً الباب خلفه.

استرخت روكسان على كرسيها تحمل رسالة والدها في يدها وهي تفكر. ان لوبيتا تحاول ان توقع روكسان في الفخ لأنها ذكرت لها عمداً موضوع الصور الموجودة في الملف. وهي واثقة من ان روكسان ستحاول العودة الى

غرفة خوان مرة أخرى لتدقق في صور تلك الصبية التي احبها خوان وما يزال، الأمر الذي كانت روksan تعتقد به فعلاً. وبعد برهة قررت التخلي عن هذه الافكار كي تقرأ رسالة والدها.

لم تحتو الرسالة على أية اخبار. كانت قصيرة تنقصها العاطفة الحقيقية، تماماً مثل رسالة ديورا. وضعت يديها على وجهها واخذت تبكي ليس لأن الرسائل لم تحتو اشياء تود سماعها، بل لأن والدها وديورا، كليهما يعتقدان بأنها خلقتهم بذاتها مع شخص كانت قد تعرفت اليه قبل أيام فقط. وبينما هي تسبح في بحر من الدموع تستعيد تلك اللحظات المربعة من حياتها وجدت نفسها تقف الآن حائرة امام واقع مؤلم جديد يكاد يدمر حياتها كلها، وسببه الوحيد ذلك الشبه الكبير بينها وبين خطيبة خوان السابقة. وراحت تتذكر كيف قال لها: «تصبحين على خير» بعد آخر رقصة رقصاها سوية «وسوف نلتقي بالقرب». وكان اللقاء في منزلها بالذات وتذكرت كيف فتحت له الباب فوقف عنده ليقول لها بكل برودة:

- مساء الخير... كنت ماراً من هنا فقررت زيارتك. هل لديك مانع؟ وقفت مبهورة البصر امامه وهزت رأسها.

كانت روksan وحيدة في المنزل. ديورا ذهبت لزيارة اختها اما والدها فكان في الخارج في رحلة عمل. خطر ببالها لأول لحظة ان تغلق الباب في وجهه، الا انها حافظت على اعصابها واجابته بكل مهذّب. لم لا تستطيع ان تتذكر ما قاله له بالفعل؟ لكنها متأكدة انها لم تطلب منه الدخول. الشيء الذي تذكره هو وقوفه بجانبها في حجرة الجلوس حيث طلبت منه ان يجلس ففعل ثم قدمت له قهوة ليأتي بعدها طلبه المشؤم الذي ادى الى تحطيم حياتها:

- بما انك يا روksan وحيدة مثل فهل ثمانين في الخروج لتناول العشاء؟ وعند طرحه السؤال فكرت روksan بخطيبته وبصعوبة الفترة التي مر بها بعد وفاتها. فبالرغم من انها كانت تخافه، اشفقت عليه، ولم تحبه بحزم كما كانت تريد:

- آسفة يا خوان، لا يليق بي ان اقبل دعوتك لانني، كما تعلم، شبه غطوبية.

اجاب قائلاً:

- هنالك فارق بين شبه غطوبية، وغطوبية بالفعل.

فكرت روksan بانه لا بد ان يكون في تلك الشخصية المترمة قليل من اللطف. فلهجته الناعمة التي تحدث بها، ونظراته المعبرة، وكلماته المستعطفة التي نطق بها دلت كلها على ذلك وبخاصة حين اضاف:

- لن يصيبك اي سوء ان تناولت العشاء معي. فقريباً سأعود الى بلدي، واود ان احمل معي بعض الذكريات الجميلة.

لم تقل شيئاً لبرهة من الوقت. وتذكرت كلماته لها في حفلة كبير واهتمامه الواضح بها، الأمر الذي جعلها ترد ذلك الى الشبه الحاصل بينها وبين خطيبته المتوفية، ثم قالت:

- في الواقع لا استطيع...

وتوقفت. عيناها البنفسجيتان كانتا تحدقان فيه وكأنهما تلتصقان منه ان يتوقف عن الاصرار. فهي تعرف نفسها جيداً، وتعرف ان عاطفتها لن تسمح لها بأن تحرمه من ساعات قليلة تقضيها برفقته، لأن ديورا كانت دائماً تحثها على ان لا تفوت فرصة نشر السعادة على الناس اذا منحت، وابتات في عينيه السوداوين عذوبة عندما قال:

- انك يا روksan رائعة، وانا اشعر بالغبطة للقاء فتاة مثلك. انه شرف كبير ان اتعرف اليك.

لم تتذكر ان كان الاخلاص الظاهر في قوله وعبارات الاطراء هي التي جعلتها تغير رأيها. كل ما تعرفه هو انها شعرت بأن عليها ان تقبل دعوته رغم انها كانت تخاف اموراً فيه تجهل سببها. طلعت الى غرفتها لتغتسل وتغير ملابسها. وما ان رآها قادمة حتى وقف وقال بابتسامة خجولة:

- تبدين رائعة يا عزيزتي.

واقترب كثيراً منها. شعرت بأنفاسه النقية الباردة على وجنتيها ثم جمدت مكانها عندما لمس جبهتها. كادت لحظتها تسيء الفطن لو ان الرجل لم يشنها في مكانها وهي غير راغبة في التحرك او الاحتجاج، او حتى في منعه من وضع المعطف على كتفها عندما توقفا لحظة في القاعة. فقالت فجأة:

- علي ان اترك رسالة لديورا.

نصم لها خوان قلماً ونزع ورقة من مفكرته كتبت عليها ملاحظة مختصرة

وقالت:

- اخبرتها انني خارجة مع صديق. لا ارى جويل ايام الخميس اذ انه يرافق والدته لزيارة شقيقته وغضبية المساء هناك. كان يقوم بذلك قبل ان يتعرف الي فاصبح بالنسبة اليه شبه ووثين يجب المحافظة عليه.

ابتسم خوان ولم يقل شيئاً. فقررت ان تمتنع عن ذكر اسم جويل كي يستطيعا قضاء سهرة ممتعة يحمل خوان ذكرياتها معه الى بلده.

اخذها خوان الى الفخم واغلى مطعم. وعندما عاد ليوصلها الى البيت في سيارته المستأجرة، شعرت ان تلك الليلة ستظل في ذاكرتها الى وقت طويل. لم تعرف بالضبط متى غمرها ذلك الشعور. اعتقدت انه حصل عندما تعمد عدم اتباع ارشاداتها نحو المنزل وبقي يقود السيارة حتى وصلا الى مكان عرفت فيها بعد انه مكان سكنه. دخلا الشقة وهي في حالة شديدة من الرعب فصرخت:

- دعني اذهب.

هز رأسه ولم يجب فأخذت تناشده ان يدعها تذهب فاستمر يرفض ويؤكد لها كل الوقت بانه لن يسيء اليها فقالت:

- انك تبغي الاساءة الي، والا لماذا جلبتني الى هنا؟
اجاب:

- لانك ملكي يا روكسان. ملكي، هل تسمعين؟ جويل هذا، ليس لك... اريدك زوجة لي. فأنا رجل شريف، وحتى نتزوج لن...
قالت:

- رجل شريف؟ كيف تستطيع الوقوف هنا والتصريح بذلك؟

- يصعب عليك ان تصدقني. لكن نيتي شريفة. اريد ان اتزوجك.

لقد علمت الكثير عن والدك وطريقة تربيته. عندما يعلم والدك انك امضيت ليلة معي، سيجبرك على الزواج مني، ليس املي اية حيلة اخرى.

صمتت مدة من الزمن ولم تجب. كانت تفكر بشيء آخر حولها عن الموضوع ثم سألت:

- لماذا جئت الى اتكلترا بعد فترة طويلة من التمسك؟

فطلب جيبه وقال:

- كيف علمت بتسكي هذا؟

اخبرته روكسان كيف توصلت الى معرفة ذلك. حلق خوان في عيشها الدامعتين وقال:

- اطلعني مارتن، عندما كان في زيارتي، على صورة لك. فقررت انه علي... علي ان اراك شخصياً.

حدقت في وجهه وقالت:

- خطيبتك...

قاطعها قائلاً:

- تعرفين عنها ايضاً.

قال ذلك بلهجة تخلو من العاطفة، الامر الذي ادهش روكسان التي افترضت انه كان متأثراً من موتها وقالت:

- رجل من قرية قريبة منك اخبر مارتن اشياء كثيرة عنك ومارتن اطلع شقيقته عليها بدوره، فاخبرتني هي كل شيء.

حلق فيها ملياً وقال:

- كان لديك الاهتمام لسألي؟

سألت روكسان بعد ان تحببت الاجابة على ذلك:

- انا وخطيبتك السابقة متشابهتان، اليس كذلك؟

اجاب بصراحة:

- نعم يا روكسان... نعم.

- ولهذا السبب تريدني ان اصبح زوجتك؟

- نعم يا روكسان.

شعرت بانها باردة كالثلج. كان هنالك شيء غير صحي في رغبته، شيء جعلها تتبعد عنه وتذهب الى ابعد زاوية في الغرفة. راقبها دون ان يقوم بأي حركة، كونه يعلم سبب تصرفها هذا. وعلمت تلتصمه قائلة:

- دعني اذهب. اتوسل اليك ان تتركني وشأني.

فقال بدون تردد:

- لن اذهب يا روكسان. اريدك ان تكوني زوجتي.

- والذي لن يسمح لي بأن اتزوجك. سأخبره بما فعلت ليقصص منك.

فهرب منها وقال:

- هل ستخبره يا روكان؟ اتريدون ان اودع السجن؟
كان صوته منخفضاً وعينه جامدتين، فعجزت روكان عن اجابته
بالطريقة التي كان عليها ان تحبه بها. شعرت بغموض قوته وسيطرته
البارعة عليها.
وقال مضيقاً:

- بما ان والدك سيعلم باننا امضينا هذه الليلة سوياً، فاني اعرض عليك
الزواج، كأشرف عمل استطيع فعله، وانت ستقبلين يا روكان. . . نعم
ستقبلين.

اجابت:

- والذي يعلم انني لن اقوم بعمل كهذا! فانا احب شخصاً اخر.
- اتعتقدين ذلك؟ كلا. فانت خلقت لي ومصيرانا متصلان. كنت اعلم
ذلك منذ اللحظة التي رايت فيها عينيك الجميلتين. لن تتمكني من الهرب
يا روكان فاقبلي بما كتب.

ذهبت الى غرفة نوم جميلة قدمها اليها خوان، واقلعت على نفسها.
تذكرت انها بقيت مستيقظة طوال الليل. فالليلة تلك، كانت بالنسبة
اليها، ليلة ابدية لن تنساها مدى العمر. وفي اليوم التالي تأخرت في العودة
الى منزلها. وعندما وصلوا، كان والد روكان قد عاد. لقد علم خوان منها
بموعد عودتها والى ذلك فتعمد التأخير ليحصل بالنتيجة على ما يريد.

لن تنسى روكان ابداً ذلك المشهد. حاولت المستحيل كي تنزع والدها
وديبورا ببراءتها في كل ما حصل، الا ان تأثير ذلك الاجنبي الأسمر عليها
جعلها تنلغثم، وتنصرف بطريقة مناقضة تماماً لصراحتها المعهودة. فبدلاً
من اقناعها ببراءتها اقدمتها بذنب لم تتركه.

- لن تندمي على ما اقدمت عليه.

قال خوان لروكان في يوم زفافهما واضاف:

انه نصيبك، وانت حكيمه لأنك قبلت به.

٣ - ابترسمي لي

في صبيحة اليوم التالي كانت روكان تجلس بالقرب من خوان وهو يقود
سيارته الكبيرة في البلدة. انزلها امام بعض المحلات واعدت ان يلتقيها بعد
ساعتين تقريباً وقال:

- ستناول الغداء وبعدها نقوم بشراء بعض الحاجيات الاخرى.

لم تحب روكان. كانت تحدق فيه غير مبالية، ومن نافذة السيارة قال:

- انتهي لنفسك من السيارات فهي كثيرة في مثل هذا الوقت.

اجابت:

- لا تقلق، فلن ادعها تدهسني.

ثم تابعت:

- ألسنت خائفاً ان اهرب؟ هل تعلم انك اعطيني كثيراً من المال؟

اجاب وهو يمز برأسه:

- لست خائفاً ان تهربي مني يا روكان. ألم أقل لك منذ البداية ان

مصيرنا واحد؟ هو كذلك الآن اكثر من اي وقت مضى. لن نفترق يا

عزيزتي، ولو انك تؤمنين بهذا كما اؤمن به، تكونين اسعد.

اجابت بسرعة:

- اسعد من ماذا؟ فالمقارنة مضحكة.

وقبل ان يطلق لسيارته العنان ويختفي قال:

- لا اريد مجادلتك في هذا الوقت. لدي اجتماع عمل بعد عشر دقائق.

تمنعي بوقتك والى اللقاء.

انجذبت الى اقرب مخزن وهي تفكر بما قال. الى اية درجة هو واثق من انها

لن تتركه! تذكرت فجأة ان جواز سفرها ما يزال في حوزته فأحست بانها اسيرة في هذه البلاد الغريبة القاسية.

ثم تحولت في المكان ولم تشتت شيئاً، ليقينها من ان خوان سيجيرها على الشراء عندما يعود. خرجت من المخزن وراحت تتمشى في الشوارع الضيقة حيث يقف بائعو الفواكه والخضار، ثم اخذت تأمل وجوه المارة والوانهم. حليط عجيب من الالوان. جلد كالفهوه والحليب، آخر اصفر قلدر، وبشرات بيضاء ايضاً.

لم يمض وقت طويل حتى وجدت نفسها امام دكان صغير لمحت فيه شخصاً ابيض اللون، ولشدة استغرابه دخلت المحل وقالت للرجل: انت انكليزي.

وقبل ان يجيب تابعت:

- انت صاحب هذا المحل.

حدثت في الكتب الموضوعة على الرفوف وكان بعضها باللغة الانكليزية. نظر اليها الرجل بفضول وقال:

- تركت عملي في موطني وجات الى هنا. انا الان مكسيكي الجنسية. اجابت بدهشة:

- صحيح؟ وهل انت مسرور هنا؟

- جداً. لن اترك هذا البلد لقاء اي شيء.

ثم صمت برهة ليسأل:

- من انت؟ وماذا تعملين هنا؟

اجابت بقليل من الصعوبة والتردد كونها المرة الأولى التي تأتي فيها على سيرة زوجها:

- انا متزوجة من مكسيكي.

- منذ متى؟

- منذ شهرين وبضعة ايام.

- اعتقد انك لم تعتادي على الحياة هنا بعد.

- كل شيء هنا مختلف.

لم تقل اكثر من ذلك فهي لم تخرج من المزرعة كثيراً، وتلك كانت اول مرة تذهب فيها الى البلدة.

- ستحبين هذا المكان بمجرد ان تعتادي عليه. المسألة تأخذ بعض الوقت، وهذا ينطبق على كل مكان جديد يتروح اليه الانسان.

اخذا يتفحصان بعضهما البعض. كان لطيف المحيا، معتدل الطول والجسم، ذا شعر بني فاتح اللون وعينين بين الاخضر والرمادي. ابتسم لها فجأة عندما رآها تحديق فيه. احمر وجهها خجلاً وادارت وجهها عنه، قائلة:

- اريد شراء كتاب.

وبينا هي في طريقها الى احد الرفوف، سألتها:

- اين تسكنين؟

- في الريف... في مزرعة راميريز. لا اعتقد انك سمعت بالمكان.

قالت ذلك وقد غمرتها سعادة غريبة لملاقاتها هذا الانكليزي الذي قد

يصبح صديقاً لها في هذه البلاد الغريبة. فقال:

- في...

توقف وحديق فيها ملياً وتابع:

- مكان راميريز المعجوز؟ هل غادر الحياة اخيراً؟ لا احسبه باع منزله

لأنه في حوزة العائلة منذ اجيال.

فهضت بغضب لا واع:

- هو ليس عجوزاً... عمر زوجي ثلاثة وثلاثون عاماً فقط!

- زوجك؟ هل تتكلمين عن دون خوان؟

- نعم.

قطب حاجبيه وقال:

- ليس متزوجاً... هذا غير ممكن.

قالت بهدوء:

- انا زوجته.

هز الرجل رأسه علامة الدهول وقال:

- هل ثمانين بالشرح؟ لكن قبل ذلك، اود ان اخبرك من اكون، فانا

توم... توم وكيفيلد عمري اكثر من واحد وعشرين واقل من ثلاثين.

اعزب. والآن اخبريني كيف توصلت الى الزواج من هذا... العجوز.

توقف لحظة واصل:

- متأسف، إلا ان دون خوان راميريز كان متنسكاً لسنوات عديدة. هل تعلمين ذلك؟

هزت رأسها وقالت:

- كان خاطباً وثوقيت خطيبته.

توقفت قليلاً وتساءلت في نفسها كيف تتكلم هكذا مع رجل تعرفت لثورها اليه. ربما لأنه من بلدها، وطبعاً بسبب شعورها العميق بالوحدة. انه لجميل ان تستمع الى شخص، غير زوجها، يتكلم لغتها.

قال:

- هذا صحيح. ان تنسكه جعله يظهر دائماً بمظهر الرجل المعجوز. لا يستطيع المرء ان يتصور كيف يتغلق شاب على نفسه كل هذا الوقت. لقد فعل ذلك مدة عشرة اعوام متواصلة.

- بالله اخبريني كيف التحيت به؟

- خلال اجازة في انكلترا.

كذبة بيضاء لكنها لم تملك القدرة على القول بأنه ذهب الى هناك خصيصاً ليتعرف اليها، وليحملها معه بعيداً عن بيتها واهلها وحبيبها.

فقال توم:

- قصة غريبة! الجميع كانوا يعتقدون انه لن يخرج من ذلك المنزل ابداً. والان تزوج، انها قصة ممتعة ذات نهاية سعيدة.

اجابت روكسان على الفور:

- نعم. . . انها قصة ممتعة كما تقول.

- انت اذن السيورا راميريز. ما هو اسمك الأول؟

- روكسان.

- اسم جميل. . . احسب ان زوجك يناديك روكسي.

- لا.

- أقدر انا؟

- في الواقع لا احب هذا التذليل.

بدأت تدرك ان المحادثة قد تحطت كثيراً طابع الرسمية وكانت سعيدة لملاقاة توم فلم تعد تكثر لطبيعة الكلام.

وعاد توم يسألها:

- اين زوجك الآن؟

- يقوم ببعض الاشغال وسألتقيه للغداء.

القى توم نظرة على ساعته وقال:

- الساعة الآن تقارب الواحدة.

- صحيح؟

قالت لاهثة واصافت:

- يجب ان اذهب.

قال صارخاً:

- عروس متشوقة. لا تنسي ان تعودي مرة اخرى.

اجابت وهي تغادر المكتبة بسرعة:

- لن انسى.

وتذكرت بعد ذلك انها لم تشتري شيئاً منه!

كان خوان بانتظارها في المكان الموعد. لمحة من بعيد. اخذ قلبها بخفق

اضطراباً فغضبت على نفسها. انها ما تزال تخاف استياعه وعدم رضاه.

ليتها تستطيع ان تستعيد الثقة بنفسها لتطرد الخوف.

وعندما وصلت كانت تلهث فوقفت بجانبه. القى عليها نظرة استغراب

وقال:

- لم تشتري شيئاً. ماذا كنت تفعلين كل هذا الوقت؟

طلعت روكسان ريقها وقالت:

- كنت اشمى واشاهد المناظر. . .

وبصوت هادئ سأل:

- اية مشاهد؟

- الناس، وعربات الخضر والفواكه وكل شيء.

تبع ذلك صمت ثم قال:

- هل زرت تلك المكتبة يا روكسان؟

تغير لونها وقفزت لتقول:

- نعم. زرتها في الواقع.

- وهل امضيت كل الوقت هناك؟

- ليس كله. تجولت في ذلك المخزن ثم تمشيت. . . و. . .

قال مقاطعاً:

- والتقيت ذلك الانكليزي؟

- السيد ويكفيلد. نعم.

ساد صمت طويل على وظهر القلق واضحاً على روكسان. كانت تمسك حقيبتها بعصبية وبأصابع مرتجفة. لاحظ خوان ذلك فامسك يديها بقصد تهدئتها وقال:

- لنذهب ونأكل شيئاً. اعتقد انك جائعة.

اجابت نعم، وغمرها شعور بالارتياح اذ توقف عن ذكر ذلك الانكليزي.

وعندما دخلوا الفندق علفت قائلة:

- يظهر انه مكان جيد. اعتقد اني جائعة.

اجاب مذكراً بتهذيب:

- لقد قلت ذلك الآن.

وعندما لم تعلق بشيء اضاف:

- هل كان ذلك مجرد رد فعل عفوي؟

هزت رأسها وقالت:

- اعتقد ذلك.

وبعد ان لمح قليلاً الى زيارتها للمكتبة بكل لطف امتنع لونها وقالت:

- أمل ان لا تكون قد استأنت من تحدثني الى السيد ويكفيلد.

ثم اضافت بجرأة:

- سررت بالتحدث الى شخص من بلدي.

قال بيروود:

- اكثر من سرورك بالتحدث الى زوجك.

كانت كلماته تبطن شيئاً جعل اعصاب روكسان ترتعد. كان النادل

يشير الى طاولة في الوسط عندما نظر اليه خوان وقال بأسلوب فظ:

- نريد مكاناً منعزلاً اكثر.

قال النادل شيئاً بالاسبانية وتحرك نحو طاولة في الزاوية فتبعاه. وبعد ان

شكره خوان، جلسا وجهاً لوجه وتابع زوجها يقول:

- لم تحبي علي سؤالي.

استعادت روكسان قليلاً من الجرأة المخزونة بين حناياها وقالت:

- ليس بينك وبينني الا القليل لتحدث عني.

فقال موافقاً:

- يظهر اننا لا نستطيع التحدث الى بعضنا البعض. على المرء ان

يحاول، وانت لا تريد ذلك ابداً.

- صحيح. لا اريد المحاولة.

- هل انت راضية بأن تعيشي على هذا النمط من الحياة؟

- افضل على اي شيء آخر في هذه البلاد.

فاجاب وقد تلالأت عيناه:

- البلاد هذه هي موطنك، وكلما اسرعت في ادراك ذلك يكون افضل

لك. قصري يكاد ينفد. لقد نيهت مرات عديدة كي تتعطي ياروكسان.

لن ادع احداً...

واكمل وهو يحدق في عينيها:

- ان يعاملني باحتقار. ان زوجتي هي آخر شخص اقبل منها معاملة

كهنه. تصرفي في المستقبل بأسلوب اكثر احتراماً. أفهمت؟

بارادة قوية استطاعت ان تحافظ على درجة عالية من الكبرياء. يجب

عليها ان تحاربه. هذا الخضوع الذي كان نتيجة للطريقة التي تربت عليها،

يجب ان ينتهي. ليس بإمكانها ان تبقى خاضعة لمشية الآخرين طوال

حياتها. وللحظة فكرت بجويل. فهو على عكس زوجها. كان دائماً يوبخها

على الطريقة السهلة التي تقبل بها اوامر والدها وديبورا. وقالت لنفسها:

ولم افقد قوة الشخصية لما تزوجت هذا الرجل. لا توجد هناك فتاة في

عمرى تقبل بأن تخضع رغباتها لمشية الآخرين.

نظرت الى الرجل الجالس امامها وهو ما زال يحدق فيها. العجرفة

والقوة باديتان على وجهه. قالت:

- انا لست مدينة لك بأي احترام. لقد خدعتني بطريقة مجرمة، كذبت

على والدي ونلت... نلت ما تشتهي. حصلت على حقوق اعتقدت بانك

تمتلكها، انها الحقة بعينها.

ثم توقفت لتتأمل اليه معجبة بنفسها وبشجاعتها. فهي تتحسن يوماً بعد

يوم. انها تمتلك الآن الجرأة والصدق في العزيمة. صحيح انها كانت تسير

بمعدل خطوتين الى الامام مقابل خطوة الى الوراء، غير ان ذلك يعد ربحاً في اي حال. وتابع:

- اعلم انك قانون قائم بذاته، الا انني لست على استعداد للخضوع لهذا القانون.

كانت شراوات الغضب تنطير من عينيه السوداوين ويده مثبتة الى الطاولة، بينما روكسان تحاول التمسك بشجاعته التي اخذ بعض منها بالانقياد. فسيطرة خوان عليها كانت قوية جداً ونظرة كافية لأن تهتز لها اقوى القلوب. كانت تلك احدى اللحظات التي لو حصلت داخل المنزل لهربت منه.

قال بصوت يهتز غضباً:

- مستخضعين لهذا القانون يا روكسان.

اخذت دقائق قلبها تحقن بالدم وهي تفكر في نيته بأن يجعل امر خضوعها الكلي له حقيقة لا مفر منها. و اضاف:

- انني اعلم ما هو حق لي وحق لك. فعصيرنا نقرر منذ زمن بعيد وبعيد جداً، انت تعلمين كل هذا. بالنسبة الى حقوة كما تدعيها. طبعاً انا متمسك بها، وذلك لسبب بسيط هو انك لم تدني الى بملء ارادتك.

انفجرت روكسان غضباً بعد ان استعادت قسطاً من شجاعته وقالت:

- كيف تنوقني ان افعل ذلك؟ ان نفترض بانني اسعى وراء اهتمامك وانتباهك؟ انه لشيء سخيف.

تلون وجهها ارتباكاً وادارت وجهها عنه، لتسمعه يقول لها بنعومة:

- اخفضي صوتك يا روكسان. فانا احضر النساء اللواتي يصرخن. زاد التوبيخ وجهها احمراراً. فردت بانها لم تصرخ ثم اضافت وهي تتناول قائمة الطعام التي دفعها خوان صوبها:

- انك تبالي. وانا لست جائعة بعد الآن.

اخذتها الذاكرة بعيداً الى انكلترا، الى ذلك المطعم الذي كانت تجلس في احدى زواياه مع جويل لتقول وهي ترتجف معيدة قائمة الطعام الى خوان:

- لا... لا اريد ان آكل اي شيء.

وبصوت خال من اي اثر للغضب امسك بذقنها ورفع رأسها بيده

وقال:

- انظري الي يا روكسان.

اهابت بها الغريزة ان تدبر رأسها عنه الا انها توقفت مخافة اثارة غضبه والغوص في مشاكل اكثر، في مكان عام كهذا، فتركت يده وتظرت اليه والدموع تغمر عينيها، دون ان تبدي اية حركة. وتساءلت، احقيقة ما ترى وتسمع، ام انها في خيال؟ لقد احتارت في امره. عيناه تحولتا الى كتلة من اللطف والسلاسة. وقال بصوت مليء بالعاطفة والحنان:

- انت تبكين يا روكسان. لا تبكي يا طفلي، فلا حاجة لذلك.

اجابت بصوت مرتجف جدير بالشفقة:

- هذا ما تعتقده انت. اما انا، قلدي الكثير لا يبكي عليه.

سحب خوان يده، وبصورة عفوية نظر الى اصابعه كأنه يحاول التفتيش عن شيء. وقال:

- ما هي الاشياء التي تبكين عليها؟

فاجابت، وقد عادت لصوتها رنة الطبيعية الناعمة:

- تعلم يا خوان انك ابعدتني عن بيتي واهلي واصحابي وعن... عن الرجل الذي احب.

استدار خوان بسرعة. واذا بالنادل يظهر قريباً منه. ناداه، وطلب منه زجاجة شراب. ثم تطلع نحو روكسان وقال:

- وهل ستضين حياتك كلها وانت متعلقة بالماضي؟

- طبعاً.

قال باصرار:

- امامك مستقبل وعليك تقبل ذلك كحقيقة.

اجابته بكسل ظاهر:

- ليس امامي اي مستقبل ولا حاضر ايضاً.

صمت لبرهة فاعتقدت انه يزدرد شيئاً ثم قال بلهجة خلت من النعومة:

- عليك ان تحاولي. فالحياة طويلة وقد يكتنفها سأم لا يطلق...

فادركت روكسان انه انتقل الى الماضي، حيث كان يعيش في وحدته المقاتلة، تلك الوحدة التي جعلت جميع الناس حوله يصفونه بالمعجوز. عشرة اعوام بعيداً عن العالم الذي يحيطه. كم كان مقدار حبه لما رآه عظيم،

تلك الفتاة التي تجمعها بروكسان صفات عديدة. ثم فكرت بمارتين وبالصور العديدة التي اخذها لها وتساءلت، اي من الصور ايفقت الرغبة لدى خوان، ليستيقظ من سباته ويتخلل عن تنسكه سعياً وراء الحصول على حبيبته التي افتقدها؟ اثارها هذه الفكرة اذ تخيلت ان خوان كان يستغلها ويعايشها معتقداً بأنه يعايش الفتاة التي ماتت قبل اكثر من عشر سنوات.

- نعم يا روكسان.

قال خوان وهو ينتشلها من تلك التصورات المؤلمة:
- فالحياة قد تكون طويلة ومملة بشكل لا يطاق. الا اننا نستطيع ان نحولها الى الجنة التي نريد بمجرد المحاولة سوياً.
كلماته تلك اذهلت روكسان اذ انها لا تتسجم مع تفكيرها تجاه ذلك الرجل الذي يستغلها ليغذي شوقاً دفيناً لآخرى. تسمرت عيناها بزوجها لمدة طويلة دون ان تتكلم وقالت اخيراً:
- لن يكون لنا امل فانا احب شخصاً آخر.
وتوقفت قليلاً لتضيف:
- وانت كذلك.

كانت الحكمة تقضي عليها بان لا تدخل مارتا في هذا الموضوع اذ ان مجرد ذكر اسمها يؤلم. الغريب في الامر ان روكسان كانت تريد ان تؤذي خوان بأي شكل من الاشكال، الا انها فضلت ان لا تذكر اسم البنت التي تعلق بها وافسدت عليه حياته لمدة طويلة.

وقال بصوت يشم عن السخط والغضب:

- ما زلت تحب جويل؟

اجابت على الفور:

- طبعاً. وسأظل احبه.

اطرق هنيهة ثم قال:

- مهما يكن الحب قوياً، فانه يزول مع الوقت.

التفت عليه نظرة محدقة، اصحح ان حبه لمارتا سيزول؟ انه لن يزول، وزواجه مني برهان على ذلك. اذ كيف له ان يزول ما دام قد تزوج من فتاة تذكره دائماً بخطيته التي رحلت؟ وقالت:

- ان حبي لجويل قوي ولن يزول ما حييت.

ثم نظرت الى زوجها وهو يتذوق الشراب الموضوع امامه وسكب لها كوباً وقال:

- تفضلني اشربي.

- لا اريد، لا اريد شيئاً.

اعاد:

- اشربي!

فتناولت كوبها وشربت، عندها قال:

- ماذا سنأكل الآن؟

واضاف بصوت رقيق النبرات مبتغياً وضع حد للنقاش:

- سنأكلين معي يا روكسان. فانا لن أكل لوحدي.

وبعد ساعة ونصف ساعة، قاما يتجولان في الاسواق. كانت روكسان تسير مع خوان وهي تفكر مندهشة بذلك الغذاء الممتع وبالأشياء الكثيرة التي علمتها عنه وعن مزرعته التي ورثها منذ اثني عشرة سنة، والمشاريع التي يود القيام بها من اجل تحسينها وتجميلها، كما علمت بان له عدة اخوة واخوات يصغرونه سنّاً، اضافة الى ابناء عمه الخمسة. فوجئت بهذه المعلومات حيث انها كانت تعتقد بان خوان وحيد في هذا العالم. ولذلك سألته:

- لماذا لا يقوم اخوتك واخواتك بزيارتك؟

اجاب، ملاحظاً انها تعلم سبب تنسكه الطويل:

- منعهم جميعاً من الاقتراب مني اما الآن فهم لن يزوروني قبل لحسن الأمور فيما بيننا.

وعندما هما بمغادرة المطعم قال:

- سنذهب الآن لشراء بعض الاشياء الجميلة لك، وارجو ان لا يكون هناك اي جدل.

عاودت روكسان ميزة الطاعة مع انها كانت تأمل ان تتصرف عكس ذلك، فتقول له بانها لن ترتدي ثياباً حسب ذوقه. الا ان متعة الغذاء وشعورها بالتعب من اثاره اية مناقشة لن تؤذي بالنتيجة الى الانتصار عليه، جعلها تصمت، لتجد نفسها وقد ابتاعت الملابس التي خدشها عنها اضافة الى اربعة فساتين جميلة، دفع ثمنها بعد ان رفض ان يدفعها تدفع من

المبلغ الكبير الذي كان قد اعطاها اياه من قبل . ففكرت بان تحتفظ بما لديها من مال لمواجهة اي طارئ قد يحدث . . . كهروبها منه عندما يصبح ذلك ممكناً .

في تلك الليلة ارتدت روكسان كعادتها ثياباً غامقة اللون غير جذابة . وما ان دخلت غرفة الطعام حتى سمعت زوجها يقول :

- اذهبي وغيّري هذه الثياب يا روكسان .

رفعت رأسها نحوه قائلة :

- سألبس الثياب الاخرى في مناسبة ثانية .

- متلبسين واحداً منها الآن . . . الأخضر .

الأخضر؟ هل كان ذلك اللون المفضل عند مارتا؟ اجابته بحدّة :

- لا ، لن ألبس لوناً اخضراً

فوجيء خوان بعنف كلماتها وجراتها فتطلع نحوها مقطباً وقال :

- اتؤمنين بالخرافات؟ لماذا لم تقولي ذلك؟ كنا اشترينا شيئاً آخر .

ارتبك روكسان لدى سماعها ذلك ، فتصورها كان خاطئاً . وسرعان

ما وجدت نفسها تقول :

- سأذهب لأغير فانا . . . انا لا اؤمن بالخرافات .

وعقب خوان قائلاً :

- ضعي قليلاً من اللون على وجنتيك اذ تبدوان شاحبتين جداً .

انسحبت بخضوع وعادت بعد قليل لتراه ينظر اليها بعينين واسعتين

يومض البريق فيهما ثم يخو . اعتراها شعور غريب . انها النظرة نفسها التي

القاهها عليها في تلك الليلة التي غيرت مصير حياتها . ماذا تعني؟ هل هي

الرغبة في . . .؟ وتوقفت عن التفكير في انتظار سماع صوت زوجها ثانية .

لأول مرة منذ زواجها ، كانت روكسان متشوقة لسماع كلماته :

- زوجتي . . . انك جميلة جداً . تقدمي مني . . .

تقدمت منه بطاعة ، وتمتمت مشيرة الى الفستان :

- انه واسع قليلاً . كان علي ان الاحظ ذلك من قبل .

واحاط خصرها بذراعيه ، فاحست بدفء يديه على جسمها المرتعد . ثم

حول وجهه نحو وجهها وقربه منه اكثر . وبطريقة لا شعورية احست انه

مع حبه القديم . . . مارتا . ثم شدها نحوه بغير شفقة وقال :

- ابتسمي لي !

ومرت لحظات مثيرة ، لحظات الم مبرح اجتاح كيانها ، فتعمدت البرود ودفعته قليلاً عنها . فامسك بها بقوة اكثر وشدها نحوه وهو يصرخ في عينيها الدامعتين :

- ابتسمي لي . اقول لك ابتسمي !

وكانت ، كلياً ردد تلك الكلمات تشعر ان ظهرها قد قصم . يا الهي !

اي نوع من الرجال هو؟ ومن اي قبيلة بربرية اق؟ واخيراً اطاعت . فافلتها

لتجد طريقها نحو كرسي بعيد فتجلس عليه بيضاء اللون مرتجفة تتفحص

الرضوض والعلامات التي خلقتها اصابعه ، بينما هو ينظر اليها غير مبالي بما

فعل . في هذه اللحظات فكرت بالمال الذي لديها وبالانكليزي توم

وبالحرب ويجواز السفر .

وبحدة سأل :

- بماذا تفكرين؟

- طبعاً ، بالطريقة التي عاملتني بها .

قال محذراً :

- تلك الطريقة ما هي بشيء اذا استمرت في تصرفاتك هذه ، فانت

زوجتي ، وعليك ان تتصرفي كباقي النساء . لقد سمعت برودتك المهينة .

عليك منذ الآن ان تتصرفي كامرأة وليس كقطعة من الجليد . هل هذا

واضح؟

كانت قد استعادت قوتها لتلقي عليه نظرة غاضبة وتقول :

- ان احترامي لنفسي يمنعني من التجاوب . فما عليك سوى تكيف

نفسك وفق ما تملك من غير تذمر .

ضاق فم خوان ، غير ان آثار الغضب والغطرسة كانت واضحة في

نبرات صوته :

- سنرى يا روكسان . الوقت لم يحن بعد لأخذ القرار باعضاعك

لمشيتي . . . الا انه يقترب جداً . لذلك ، انصحك بان تفكري كثيراً قبل

ان ترفضني ما حدثت لك منه .

٤ - لن تكوني مثلها

كانت تسير وحيدة في شارع سان ميغيل متجهة نحو مكتبة نوم. لم تكن روكسان تدري بأن احداً يلاحقها فخوان كان قد غادر في صبيحة ذلك اليوم الى مدينة مكسيكو ليقوم ببعض الأعمال هناك، ولم تتوقع عودته قبل اربعة ايام. كانت فكرة غيابه كافية لتسيبها مأساة الحياة التي تعيش، ومستقبلها الغامض. وما ان وصلت المكتبة حتى حياها نوم ودعاها الى دخول غرفة الجلوس قائلاً:

- اجلسي يا روكسان. سأغلق المكتبة بعد ساعة. اتبقين لتناول الغداء معي؟

اجابت:

- بكل سرور يا نوم.

استرخت على الكرسي، بينما ذهب نوم الى المطبخ لتحضير القهوة. وبعد قليل اتجه نحو مدخل المكتبة ليرى من هناك، ففتح الباب لحظة ثم علقه معلقاً:

- امرأة عجوز. يا لها من امرأة بليدة.

رأى روكسان نظرها وسألت:

- ماذا تعني؟

- ربما صرخت انها في المكان الخطأ اذ فتحت الباب واغلقتها مرة ثانية.

لمس مثلها لا يتأخرون الكتب. انهم يفتشون عن شيء يأكلونه.

ثم بعد الانتهاء من تحضير القهوة، ولما عاد بها وضع الصينية على

الطاولة امام روكسان وقال:

- استطيع ان اغلق المكتبة الآن فالشغل ليس بكثير.

سألت روكسان:

- انت لا تفتح طيلة النهار، اليس كذلك؟

- نعم احب ان اتمتع ببعض الوقت لنفسى.

وبعد برهة صمت قال:

- هل تودين ان ترافقيني في نزهة بالسيارة؟

فاحست روكسان برعشة خفيفة واجابت بدون تردد:

- بل ارحب بذلك يا نوم فانا بحاجة للتغيير.

قال وهو يسكب القهوة:

- الا يأخذك الدون خوان في سيارته؟

- لا احب ابداً مرافقته يا نوم.

اوماً برأسه قليلاً ثم قال:

- يظهر انها حياة جحيم هي التي تعيشينها. لماذا لا تتخلين عنه؟

احست روكسان برعشة اخرى تصدر من احشائها. ففي الشهرين

الماضيين كانت تحاول، بدون ان يعرف والدها اوديبورا بالامر، ان تصل

الى تلك النتيجة. ومع انها اخبرت نوم بكل شيء، وجدته كارهاً لمساعدتها

في امر تخليها عن زوجها وهرها. وقالت بحزم:

- اريد ان اتخل عنه لقاء اي ثمن.

وصرت روكسان عندما رأت نوم يومئذ برأسه واضافت:

- غير ان جواز سفري ليس بحوزتي.

سأل بدهشة:

- ليس معك؟ وابن هو اذن؟

اجابت:

- انه مع خوان.

- تستطيعين الحصول عليه منه بكل تأكيد.

وهزت برأسها قائلة:

- لا اجرؤ على طلبه منه. فهو سيشتك بالامر حالاً.

وبعد برهة تفكير قال نوم:

- اعتقد انك على حق.

واضاف:

- هل تريد ان تركه حقاً؟

- نعم، اريد يا نوم. لن استطيع العيش هكذا فترة اطول.

اطرق هنيهة قبل ان يقول:

- لا ادري كيف تزوجت منه في الدرجة الاولى؟

اجابت والالم يحزن نفسها:

- كانت غلطة يا نوم. وكما اخبرتك، اجبرني والدي ومربي العجوز

على ذلك الزواج.

- جميع البنات في عمرك توقعن منذ زمن بعيد عن القيام باعمال كهذه.

فاجابت بلهجة بانسة:

- كنت قد شرحت لك عن القصة التي سادت طريقة نشائي. فالمرء

يلزمه قسط وافر من الشجاعة ليقف في وجه اناس حكموه مدة طويلة.

قال والدهشة ظاهرة في نبرات صوته:

- وماذا عن جويل... ما كان رأيه بالموضوع؟

- طبعاً، كان الأمر مرهقاً له. كان غاضباً جداً. الا ان اهتمامه بدأ يفتر

في الأخير.

تلك هي المرة الاولى التي تعترف روكسان بذلك. فضلت ان تلوم

نفسها على ما حدث، لأنها هي التي اشعرت حبيبها بانها تخلت عنه.

سأها نوم وعلامات الدهشة ما تزال باقية عليه:

- جويل لم يصدق بانك اقدمت على هذا العمل الشنيع؟

- لقد صدق يا نوم.

تايمت بعد ان لاحظته يمز رأسه بعنف:

- تكلم معه والدي في غيابي، والظاهر انه استطاع اقناع جويل بذنبي.

- لا ادري كيف اقتنع. لو كنت انا محله لما اقتنعت.

اجابت على الفور:

- على العكس. كنت انت اقتنعت ايضاً. فالدليل كان واضحاً. لقد

اعترفت بانني كنت مع خوان في الفندق. ذلك كان كافياً ليشكل صدمة

لاي فرد منهم، خاصة وانني لست البنت التي تخرج مع غرباء. لم يستطع

والدي وديورا التصور بانني فعلت ذلك. انا، انا نفسي لا استطيع تصور ذلك.

نظر اليها نوم باستغراب وقال:

- اللون خوان غريب جداً. يظهر ان لديه قوة خاصة عليك لجأ اليها

منذ البداية. هل انا على حق؟

اجابت روكسان معترفة بصحة هذا الاستنتاج. وعاد نوم ليسأل:

- وهل كذب اللون خوان على والدك؟ لم تكوني واضحة حول هذه

النقطة.

لم ترد روكسان الاجابة على هذا السؤال، فهي ما تزال تشعر بالحيرة

حياله وتفضل ان لا تضع زوجها في موقف قائم جداً عندما تتكلم عنه مع

نوم. انها لا تدفن لخوان باي احترام وتكرهه اكثر من اي شيء في الوجود.

غير انها تحببت اعلام نوم بحقيقة كذبه على والدها ليحظى بها في النهاية.

واجابت:

- كان يحيط الموضوع في ذلك الوقت الغموض والتشوش. في الواقع لا

اذكر الكثير. كل ما علمته هو ان والدي كان يقول بأن علي ان اتزوج من

خوان.

عندما كانت روكسان تتكلم، كان نوم يفكر. لاحظت ذلك في تعابير

وجهه. وعندما تكلم اخيراً، نطق بشيء اذهلها وبقيت اصداؤه ترن في

اذنيها لوقت طويل جداً:

- هل فكرت يا روكسان بانك لاشعورياً اردت الزواج منه؟

- اردت!

اعدت تلك الكلمة وهي تحديق فيه وتهز رأسها بلهول وبطء. وسرعان

ما علفت تلك العبارة في نفس روكسان لتصبح حقيقة لا خلاف حولها. فلو

كان ذلك غير صحيح، لماذا لم تنقه حالاً بدلاً من مجرد التأكيد على كلمة

«اردت» فقط؟ كان ممكناً ان يعتبر ذلك سخيفاً لو انها ابعدته عنها بالفعل.

فهي لم تبد اية معارضة عندما شعرت به يلمس شعرها، وعندما زارها في

البيت في غياب والدها وديورا، لم تمتلك القدرة على طرده من المنزل، بل

علاوة على ذلك، وافقت لتناول طعام العشاء. حتى ان اطراء لها كان ممتعا

لها رغم انها كانت تخافه. ثم انها لم تبدي اي تلمع عندما ارتدت ثيابها ورافقه

الى الفندق لتناول العشاء. وفوق ذلك، شعرت طيلة فترة العشاء بأن حديثه كان ممتعاً وودت لو طال أكثر. وقالت لنفسها، سوف نظل نتذكر ذلك لمدة طويلة من الزمن، وهل هذه الانعكاسات جميعها كانت نتيجة بعض الجاذبية في شخصية الدون خوان اروماندو راميريز المروعة؟ مستحيل... الا انها... قالت أخيراً وهي تركز نظرة حائرة على وجه توم المتيقظ:

- لم اكن اريد الزواج منه ابداً.

واضافت:

- كيف لي ان افعل ذلك وانا مغرمة بجويل؟

ابتسم توم ابتسامة خفيفة وقال:

- كنت مرة مغرماً بفتاة، ثم التقيت بفيليس والان لست مغرماً بالفتاة الأولى.

- انت متقلب...

وارادت ان تكمل، غير انه هز رأسه مقاطعاً ليقول:

- يا عزيزي روكسان، علينا ان تواجه الحقيقة. لم اتزوج الفتاة الأولى.

فلو فعلت، لكنت ارتكبت خطأ فادحاً.

سألته باهتمام:

- وماذا حدث للفتاة الثانية، فيليس؟

- قررت انها ليست اهلاً للزواج. اذ انها تفضل الاستقلال في حياتها وهي قادرة على تدبير امورها بنفسها. اضيفي الى ذلك، وظيفة جيدة ومعاشاً محترماً. فحينما رفضت فيليس الزواج متي قررت الهجرة. تناولت خريطة العالم لانتقي موطناً آخر، واذ بالاختيار يقع على هذا المكان. فيليس تعرف عنواني ووعدت بان تكتب لي في يوم من الايام. هي تعلم بانني مستعد للزواج منها متى غيرت فكرها.

اصبح قلب روكسان الرقيق اكثر رقة. وقالت مؤامسة:

- متأسفة يا توم. آمل ان تتزوج من فيليس يوماً ما.

اجاب على الفور:

- وانا آمل ذلك، غير اني لا اعتمد كثيراً على هذا الأمل، فالنساء في هذه الأيام، وفي تلك البقعة من العالم على الخصوص، قد تحررن لدرجة بعيدة

جداً على عكس وضعهن هنا حيث الهيمنة ما تزال شأن الرجال. لم تعلق روكسان بشيء، فعاد توم الى الموضوع الذي اثاره من قبل قائلاً:

- يظهر برغم كل الذي قلته، انك اردت بالفعل الزواج من الدون خوان.

هزت رأسها قليلاً. فادعاء توم ان مفاجئاً لها ولم تستطع دحض هذا الزعم بالقوة والتأكيد المطلوين. قالت بنبرات صادقة:

- اني اكرهه يا توم.

- تكرهينه... المرأة مخلوق عجيب يا روكسان. تعلمت الكثير عنها من الحالتين اللتين حصلنا معي. انها تثبت بفكرة ما، ولا تتخل عنها، الا بعد حدوث هزة، او حادثة رهبة او اي شيء آخر... لتعود الى عقلها فتدرك ان فكرتها كانت غير صائبة. اعتقد انني اتكلم بغموض. يجوز انك اسأت فهم زوجك.

شعرت روكسان بان آملها بالهروب قد تبخرت. فاسرعت لتؤكد بانها مصيبة فيها تعتقد وادفعت:

- اريد ان اتركه يا توم... ارجوك ان تساعدني.

بعد تردد طويل قال:

- الأفضل الانتظار حتى تتأكدي من شعورك. فاذا بقيت مصممة، سوف اساعدك. لكن يا روكسان، لا تنطقي بشيء عن هذا الأمر لأي كان. لا تريد الدون خوان ان يعلم بشيء فاذا علم، او لاحظ شيئاً عندها تقع المأساة علي وعلىك معاً. فهو كما تعلمين، ذو نفوذ كبير هنا. فعلاوة على امتلاكه جميع الاراضي في قريتك يمتلك أيضاً ربع هذه البلدة اضافة الى مزارع السكر وغيرها. لذلك ارجوك ان تحاذري.

اجابت روكسان:

- ليس هناك من احد يستطيع التكلم معي، حتى لو اردت ذلك. شعرت روكسان بمرارة لتطور الأمور بهذا الشكل، اذ انها كانت تسعى للتحرر من زوجها باترب فرصة. اما الآن فها عليها سوى الانتظار. وعاد توم ليؤكد عليها بان تحاول الحصول على جواز سفرها متجنباً جميع المخاطر، فبدت على وجهها ملامح الحيرة وهي تقول:

- لا اعلم اين يحتفظ به. هل لي ان احصل على جواز غيره؟
- مستحيل. حاولي ان تجديه. كوني لبقه بالسؤال عنه او بالتفتيش عليه.

اجابت روكسان بانها ستفعل ذلك في اليوم التالي. ثم اردفت بعد ان تذكرت امراً ما:

- لا تقلق ان لم آتيك الاسبوع المقبل، فهذه الايام يجب خوان ان يمضي وقتاً اطول في المنزل، وقد اجد صعوبة في مبارحته.

قال في فضول:

- بدأت تفتعلين الاعذار.

اجابت على الفور:

- لم افعل اي شيء. في كل يوم ارى خوان يدخل غرفة صغيرة، علمت فيما بعد انه يستخدمها كمكتب بعد تناول الفطور ويبقى فيها حتى يحين موعد الغداء ثم يعود اليها حتى يحين موعد العشاء.

صمتت يوم لحظة ثم سالت:

- وهل غير هذه العادة الآن؟

- بدأ يقوم بذلك الاسبوع الماضي. وقد جئت اليك كما تعلم يوم الخميس بعد ان استقل سيارته قائلاً انه لن يعود قبل الساعة مساء.

استغرق نوم في التفكير قليلاً ثم قال:

- جائز ان يكون التغيير مؤقتاً. واضح انه رجل كثير الاشغال، حتى خلال تنسكه لم يحمل اشغاله. اذن، محتمل انه عاد الى عادته في صرف معظم ايامه في العمل.

كان رد فعل روكسان مفاجئاً اذ قالت:

- آمل ان يكون ذلك صحيحاً. كم احب المجيء الى هنا. اشعر بالي في

بيتي هنا.

تطلعت نحوه بخجل، و اضافت:

- آه، كم تمنيت ان نصبح اصدقاء منذ التقيتك لأول مرة وما هي امنيتي تتحقق.

اجابها نوم:

- انه لأمر غريب. لقد اعتراني نفس الشعور. كنت اعلم، انه يتوجب

علينا معرفة بعضنا البعض اكثر.

واضاف:

- وبما اننا من نفس البلد كان لا بد من الالتقاء.

ثم اخذ يجمع الفناجين، والقي نظرة على ساعته وقال:

- اريد ان اغلق المحل باكراً اليوم، لنذهب ونتناول الغداء. انه لجميل حقاً ان احظى بك كل هذا الوقت. انت تريدان العودة الى الفزرعة في وقت متأخر، اليس كذلك؟

- ليس متأخراً جداً. ارد ان اعود في حوالى الساعة العاشرة.

اجاب نوم:

- ليكن ذلك.

بعد الغداء، غسلا الصحون واستقلا السيارة. سألها نوم عن جويل، فلخبرته كل شيء رغم التأثير الذي بدا واضحاً في صوته المرحف وعينيها الدامعتين، ثم صممت فترة من الزمن اقترح نوم على اثرها ان يذهبا الى اكابولكو مضيافاً:

- اعتقد انك لم تزوري هذا المكان بعد؟

- كلا. هل هو بعيد؟

- ليس بعيداً لمن لديه متسع من الوقت. نستطيع ان نسيح لو كان عندك ثوب سباحة.

ان فكرة السباحة في تلك المياه الاستوائية الدافئة هي اجل ما كانت تحلم به، وبحركة مفاجئة اقترحت على نوم ان يتوقف امام اقرب دكان لتشتري ثوب سباحة و اضافت:

- اظن اننا سنجد هناك مكاناً للتغيير.

- اكيد.

وبعد فترة توقف امام دكان لبيع الملابس، فاشترت روكسان ثوباً من قطعة واحدة، ثم قالت:

- بقي علينا ان نشترى بعض المنشاف.

وسرعان ما بدت عليها علامات الارتياح عندما علمت بان نوم يحتفظ بمنشفة كبيرة في السيارة وبخاصة عندما فكرت بان عليها ان توفر الأموال التي معها لأمر قد يكون اكثر اهمية من المنشفة.

وما هي الا دقائق، حتى كانا يعبران حدائق غناء، مليحة بالاشجار
المتنوعة والألوان الساحرة. كانت روكسان تسأل وتتعجب وهي التي أصبح
لها في تلك البلاد مدة تزيد على الأربعة شهور وما تزال تجهل كل تلك
الاماكن. واخيراً اخذا الطريق المؤدية الى الشاطئ، وعندما وصلا الى
هناك، اوقفا السيارة امام احد الفنادق القريبة حيث ظهر صف كبير من
الاكواخ التي تستعمل لتغيير الملابس. فصرخت روكسان:
- انه مكان رائع.

وما هي الا بضع دقائق حتى قفز كلاهما الى الماء وبدأ يسبحان جنباً الى
جنب وروكسان تقول:

- لم يخطر ببالى ابدأ هذا الصباح بانني سأجد نفسي هنا بعد الظهر.
حقاً لم تفكر بذلك ابدأ. فائناء تناول الفطور مع خوان في صبيحة ذلك
النهار، بدا خوان مكتئباً صامتاً وبقي كذلك حتى اوشكا على الانتهاء عندما
قال:

- ماذا ستفعلين في غيابي؟

اجابت على الفور:

- سأعمل نفس الاشياء التي اعملها اثناء وجودك.

واردت:

- سأروح عن نفسي بطريقة ما.

التفت خوان اليها وقال:

- شعورك بالوحدة هذا امر اتخذته انت بمجاء ارادتك.

- يبقى افضل من مصاحبتك.

اكتفى خوان بحدجها بنظرة قاتلة دون ان يقول شيئاً. لقد أصبح معتاداً
على ردود زوجته المعاكسة، وتحولها التدريجي بدأ يصبح اكثر وضوحاً يوماً
بعد يوم. وبرغم الخجل الذي كان يبدو عليها في بعض الأحيان، الا ان
تفتها بنفسها كانت تتضاعف وبخاصة انها قريباً ستحضر ميلادها
العشرين. كانت على استعداد دائم للاعتراف بان الشيء الحسن الذي
حصل في حياتها هو ابتعادها عن والدها وديبورا لأن كليهما، وعلى طريقته،
كان قد سلبها قوة الشخصية والثقة بالنفس. نعم، كان ذلك حسناً، الا ان
الامر السيء كان وجودها مع خوان. فلو تزوجت من جويل لكانت الآن

كالزهرة في اوج تفتحها وليس كما هي الآن، برعماً يكافح كي يزهر. في اي
حال التقدم قد حصل، ولم تعد الخلافات بينها تأتي من طرف واحد.
فخوان يحاول عند الضرورة، ان يشعرها بسيطرته، غير انه لم يقف ضد
التغيير الذي يحصل لها عما يجعلها تفكر بانه يفضل زوجة تقف في وجهه
بعض الشيء. وفيما هي صامته تفكر بكل هذه الامور اذ بتوم يقطع عليها
حبيل ذلك الصمت ليقول:
- اراك هادئة جداً يا روكسان.

انقضت ساعة من الزمن وهي راقدة على الرمال الذهبية، بالقرب من
طاولة صغيرة مسقوفة، كباقي الطاولات، بسعف النخيل الجميل، تتأمل
مياه البحر الزرقاء الدافئة الناعمة وتحلق في البعيد، حيث يمارس هواة
التزلج على الماء رياضتهم المفضلة، وتتلفت حولها حيث الشاطئ حافل
بالمتنزهين ثم ترفع رأسها نحو سماء صافية زرقاء تتوسطها شمس حارقة
ترسل اشعتها الحارة في كل مكان. وكأنها في منتصف حلم، اجابت:

- كنت افكر.

انسل قربها على الرمال تاركاً بعض مسافة بينها وسأل:

- بماذا؟ أمل ان لا يكون في امر قد يعطل علينا الاستمتاع بروعة هذا

اليوم.

اجابت معترفة:

- في خوان. كنت افكر به في الواقع.

- خوان؟

قال ذلك ثم غرق في تفكير عميق:

- من الواضح انه تغير كثيراً، وبسببك يا روكسان. عليك ان تقرري
بذلك.

- لا افهم، كانه متسكاً. لم يكن احد يفكر بانه سيعود لمواجهة الحياة
مرة اخرى. لقد شرحت لك كيف حدث ذلك، وكيف غادر موطنه وذهب
الى انكلترا.

- ذهب بعد ما رأى رسمك.

- وادرك كم وجه الشبه كبير بيني وبين مارتا.

نظر اليها من طرف عينيه وقال:

وما هي الا دقائق، حتى كانا يعبران حدائق غناء، مليئة بالاشجار المتنوعة والألوان الساحرة. كانت روكسان تسأل وتتعجب وهي التي اصبح لها في تلك البلاد مدة تزيد على الاربعة شهور وما تزال تجهل كل تلك الأماكن. واخيراً اخذا الطريق المؤدية الى الشاطئ، وعندما وصلا الى هناك، اوقفا السيارة امام احد الفنادق القريبة حيث ظهر صف كبير من الاكواخ التي تستعمل لتغيير الملابس. فصرخت روكسان:

- انه مكان رائع.

وما هي الا بضع دقائق حتى قفز كلاهما الى الماء وبدأ يسبحان جنباً الى جنب وروكسان تقول:

- لم يخطر ببالي ابداً هذا الصباح بانني سأجد نفسي هنا بعد الظهر. حقاً لم تفكر بذلك ابداً. فائتاء تناول الفطور مع خوان في صبيحة ذلك النهار، بدا خوان مكتئباً صامتاً وبقي كذلك حتى اوشكا على الانتهاء عندما قال:

- ماذا ستفعلين في غيابي؟

اجابت على الفور:

- سأعمل نفس الاشياء التي اعملها اثناء وجودك. واردفت:

- سأروح عن نفسي بطريقة ما.

التفت خوان اليها وقال:

- شعورك بالوحدة هذا امر اتخذته انت بملء ارادتك.

- يبقى افضل من مصاحبتيك.

اكتفى خوان بحدجها بنظرة قاتلة دون ان يقول شيئاً. لقد اصبح معتاداً على ردود زوجته العاكسة، ونحوها التدريجي بدأ يصبح اكثر وضوحاً يوماً بعد يوم. وبرغم الحجل الذي كان يبدو عليها في بعض الأحيان، الا ان ثقتها بنفسها كانت تتضاعف وبخاصة انها قريباً ستحتفل بميلادها العشرين. كانت على استعداد دائم للاعتراف بان الشيء الحسن الذي حصل في حياتها هو اعتمادها عن والدها وديورا لأن كليهما، وعلى طريقته، كان قد سلبها قوة الشخصية والثقة بالنفس. نعم، كان ذلك حسناً، الا ان الأمر السيء كان وجودها مع خوان. فلو تزوجت من جويل لكانت الآن

كالزهرة في اوج تفتحها وليس كما هي الآن، برعياً يكافح كي يزهر. في اي حال التقدم قد حصل، ولم تعد الخلافات بينها تأتي من طرف واحد. فخوان يحاول عند الضرورة، ان يشعرها بسيطرته، غير انه لم يقف ضد التغيير الذي يحصل لها مما يجعلها تفكر بانه يفضل زوجة تقف في وجهه بعض الشيء. وفيها هي صامته تفكر بكل هذه الأمور اذ يتوم يقطع عليها حبل ذلك الصمت ليقول:

- اراك هادئة جداً يا روكسان.

انقضت ساعة من الزمن وهي راقدة على الرمال الذهبية، بالقرب من طاولة صغيرة مسقوفة، كباقي الطاولات، بسعف النخيل الجميل، تتأمل مياه البحر الزرقاء الدافئة الناعمة وتحدق في البعيد، حيث يمارس هواة التزلج على الماء رياضتهم المفضلة، وتلتفت حولها حيث الشاطئ، حافل بالمتنزهين ثم ترفع رأسها نحو سماء صافية زرقاء تتوسطها شمس حارقة ترسل اشعتها الحارة في كل مكان. وكانها في منتصف حلم، اجابت:

- كنت افكر.

انسل قريبا على الرمال تاركاً بعض مسافة بينها وسأل:

- بماذا؟ أمل ان لا يكون في امر قد يعطل علينا الاستمتاع بروعة هذا اليوم.

اجابت معترفة:

- في خوان. كنت افكر به في الواقع.

- خوان؟

قال ذلك ثم غرق في تفكير عميق:

- من الواضح انه تغير كثيراً، وسبيك يا روكسان. عليك ان تقري بذلك.

- لا افهم، كانه متنسكاً. لم يكن احد يفكر بانه سيعود لمواجهة الحياة مرة اخرى. لقد شرحت لك كيف حدث ذلك، وكيف غادر موطنه وذهب الى انكلترا.

- ذهب بعدنا رأى رسمك.

- وادرك كم وجه الشبه كبير بيني وبين مارتا.

نظر اليها من طرف عينه وقال:

- هل انت متأكدة بانك تشبهينها؟
 - طبعاً متأكدة، لقد اعترف خوان بان ذلك كان السبب لزواجه مني.
 بالإضافة، فقد شاهدت رسماً لمارتا.
 - ارتك اباه تلك المشعوذة؟
 فسألت روكسان باهتمام:
 - كيف تعلم بانها تشبه المشعوذين؟
 - من الناس فالتناس تحكي كثيراً. يظهر ان لوييتا تعلقت بمارتا لانها كانت تعمل عند والدتها، وقد حضرت ولادة مارتا. الجميع يشاهد لماذا تركت لوييتا عائلتها وذهبت لتشتغل عند عائلة راميريز. كان والد زوجك حياً في ذلك الوقت. الغريب في الأمر هو احتفاظها بعلاقات ودية وطيدة مع والدة مارتا. والناس يتذكرون كيف كانت تمضي اوقات فراغها في منزل والدة مارتا تلاعب الطفلة ونقود عريتها. البعض يقول، انه نتيجة تعلقها بالطفلة، اجبرت على الابتعاد عنها، الا ان هذا الأمر لا يتفق مع الواقع حيث ان علاقاتها مع اهل مارتا بقيت على ما يرام لا تشوبها اية شائبة. كما يقال ايضاً انها اصبحت بالاغنياء مدة من الزمن بعد وفاة مارتا وبقيت بعد ذلك مريضة لفترة طويلة جداً. كل هذا الوقت، كان الدون خوان رائعاً بعامته لها.

سألت روكسان بفضول:
 - ومنذ متى تعلم كل هذا؟ انت لم تذكره لي من قبل.
 اجاب توم معترفاً:
 - قصتك اثارت حب الاستطلاع في نفسي، وما ان جاء الى هنا رجل عجوز يعمل في مزرعة الدون خوان حتى وضعت امامه بعض الاسئلة، وبدقائق قليلة اجاب عليها كلها وهو الذي قال بان لوييتا كالشعوذين.
 - هل تعلم ما عمرها؟
 - في اواخر الخمسينات، ليس اكثر، مع انها تبدو اكثر من ذلك بكثير.
 - أومأت روكسان برأسها وقالت:
 - انها مروعة. في بعض الأحيان اشعر ان حياتي تكون سعيدة لو تخفني عن وجهي. اتعجب، لماذا لا تتقاعد؟

- لانا تعيش في بيت مريح في المزرعة، وربما ليس لديها مكان آخر تذهب اليه.
 - هل ما تزال والدة مارتا على قيد الحياة؟
 - توفيت نتيجة الصدمة التي سببتها لها وفاة مارتا.
 - اكفهر وجه روكسان وقالت:
 - يا لها من قصة محزنة.
 - قال توم بوجه عابس:
 - محزنة لكنها غريبة نوعاً ما.
 - ثم رفع نفسه قليلاً عن الارض ونظر الى الافق مضيقاً:
 - امور عديدة حدثت، موت الفتاة نفسها ثم وفاة والدة ثم مرض لوييتا واخيراً تصرف الدون خوان الغريب. انا افهم، ان يرتاح فترة من الزمن بعد الذي حدث، وليس عشر سنوات كاملة. في الحقيقة، هذا شيء مستهجن.
 - في بعض الأحيان اشعر ان مارتا ما تزال...
 - وتوقفت دون ان تكمل مدركة غرابة الكلمات التي اوشكت ان تنطق بها... غير ان توم حاول ان يكمل عنها مستهجماً:
 - شبحها يلزم المكان. اهذا ما عنيت؟
 - لم يدرك توم سبب توقفها المفاجيء عن الكلام غير انها سارعت في الاجابة عن تساؤله وقالت:
 - يظهر ان حضورها يلزم المكان، في بعض المناسبات وليس دائماً.
 - صمت برهة يفكر ثم سأل:
 - عندما تكون لوييتا موجودة؟
 - اجابت، وقد تغضن جبينها:
 - نعم، نعم يا توم في حضورها فقط.
 - نظر اليها توم بحدة قائلاً:
 - هذا يفسر كل شيء، انها تبغي تذكيرك بمارتا، فهي التي ارتك رسمها. اليس كذلك؟
 - لم تعلق روكسان بشيء فاردف توم قائلاً:
 - لماذا جاءت اليك بالرسم يا روكسان؟

- هي التي بدأت الموضوع. فبينما كنت في احد الأمام جالسة في الحديقة، اتجهت لوبيتا نحوي وبدأت الكلام دون ان ابدي لها امارات التشجيع... اذ انني منذ المرة الاولى التي شاهدتها فيها لم احمّلها... فهي كما يظهر شريرة نوعاً ما.

توقفت روكان عن الكلام، ثم هزت كتفيها بلا اكتراث. فلوبيتا كانت الرفيق المناسب لخوان طوال السنوات التي عاشها متنسكاً. واردفت تقول:

- تكلمت عن مارتا وهكذا علمت باسم الفتاة، وتكلمت عن جالها الرائع.

وهنا لم يسع روكان الا ان تردد كلمات لوبيتا لها حين قالت:
- «انت لن تكوني ابداً بمثل جالها. اعتقد الدون خوان انك بديلة عنها، غير انه سيكتشف خطاها بالقرب. نعم، انت تشبهينها بأمور عدة، الا انه لن يخلق مثلها في الوجود. كانت ملاكاً نزل من السماء. وكانت طاهرة النفس وذلك كان سر جالها. اما انت...» ويصقت على قدمي «فانت بشعة بالمقارنة». فقلت اقاطعها بحجة: «لم ينعتني احد بالبشاعة في حياتي». قالت: «هناك الآن من يقول لك ذلك» وتابعت «اتريدين ان تشاهدي رسمها؟» وبغير انتظار لسماع ردي على ذلك تناولت من صدرها محفظة قديمة متسخة، الأمر الذي اغضبني فادرت وجهي عنها. وبحركة سريعة، امسكت لوبيتا بقرة بذراعي وشدتها نحوها وهي تقول: «سألفنك درساً لن تنسيه في حياتك. هذا جزاء من يتطلع باحتقار نحو طفلي الحبيبة. انظري الآن...»

ودفعت بالصورة المتسخة المبقعة من كثرة الاستعمال الى وجهي وهي تصرخ:

- «ولا بأس. اسخري من هذه العجوز الشمطاء. ماذا بإمكانك ان تقولي الآن؟»

حدقت في الصورة وقلت:

- «في الحقيقة كانت جميلة».

وصرخت العجوز مرة اخرى:

- «ماذا تقولين؟ كانت جميلة؟ طفلي الحبيبة ما تزال هنا. انها هنا

وستبقى هنا داخل هذا القلب وقلب حبيبها».

ثم رفعت يدها لتصفني فتطلعت اليها وانا لا اكاد اصدق وقلت:

- «انت... كيف تحمرون على صفعي؟ ان زوجي سيعلم بالأمر».

اغربي عن وجهي، انت وصورتك الغالية تلك!.

وقفت العجوز تنظر الى الألم ظاهر على قسماات وجهها الماثوية والزيد يكسوفها وهي تتكلم بغضب. ذلك الغضب الذي حوّلها الى شيطانة تحلو شفتاها ووجتها من اي لون. وما هي الا دقائق حتى هدأت العاصفة وكشفت العجوز عن اسنانها المطبقة لتقول:

- «انت تشبهينها، اليس كذلك؟ ترين الشبه الغريب الذي جعل الدون خوان يتخذك زوجة له؟ الا انك مهما فعلت فلن تستطيعي ان تجعله يحول حبه لمارتا نحوك. لقد اختارك كبديلة لترضي اهواءه فقط. هذا كل شيء».

بقي نوم ضامناً فترة من الزمن بعد انتهاء روكان من سرد حكايتها مع تلك العجوز، وهو غارق في التأمل والتفكير، وقد تجهّم وجهه، ليقول أخيراً:

- لا اعجب من قولك بان حياتك ستكون اكثر سعادة بدون تلك العجوز. والله لا اعلم يا روكان، كيف تستطيعين تحمل وجودها معك. الا تستطيعين اقتناع زوجك بطردّها؟

- انه لن يفعل ذلك ابداً. انا في الواقع، لا اراها كثيراً، فهي في المطبخ معظم الوقت.

ثم تذكرت روكان حادثة دخولها الى غرفة خوان، والصورة الموضوعية في درج الطاولة. وكيف ان لوبيتا كانت تمنى ان يعود خوان ليجد زوجته في غرفته. ففكرت ان تنسى الموضوع من دون ذكره ليوم الذي وقفت لتوه وبدا عابساً عندما قال:

- وصفت شكل لوبيتا بشكل غامض جداً...

تفوه بهذه الكلمات وادرك انه ارتكب خطأ فادحاً بالرغم من ان تعابير وجه روكان لم توح بانها فهمت قصده. الا انها علمت فيها بعد ان المرأة العجوز التي حاولت الدخول الى مكتبة نوم عندما كانت روكان جالسة في الداخل ما كانت سوى لوبيتا.

توحي ملاحه بالبرودة والقساوة. انه ثنائي غير متجانس. هذا ما كانت تعتقده روكسان. وطال الصمت، وهي تنظر اليه جامداً مكانه. واذا بشفتيها ترسلان اليه ابتسامة باردة فيقول:

- هل هناك ما يضحك يا روكسان؟

وجاء صوته الحاد ليمسح تلك الابتسامة عن وجه روكسان فتشعث عن طريقه وهو يصعد درجات السلم بخطى قوية حتى وصل وامارات الغطرسة المهيبة بادية على وجهه.

واجابت روكسان بالنفي بعد ان تلون وجهها:

- كنت ابتسم لشيء آخر.

واستدارت لتعود الى المنزل، فامسكها بيدها وقال:

- هل اشتقت الي يا روكسان؟

ألهذا السبب غاب هذه المدة؟ ارايت ان تضحك الا انها توقفت عن ذلك واجابت:

- اشتقت الى عنايتك غير المرغوب فيها. وبما هذا ما تود سماعه.

ومرت لحظة صمت مريضة، تكلم بعدها منيراً بالعواقب الوخيمة التي تنتظرها وقال:

- انت تتجاوزين جميع الحدود. اعلم انك تغيرت. جميل ان تتمتع المرأة بقليل من الجراءة. نعم انا ادرك انك نشأت في جو هو ينتهي الشدة والحزم.

ولم يعطها الفرصة كي تقاطعه واصف:

- لكني لن اسمح لك بان تتعادي اكثر بوقاحتك واهاناتك المستمرة لي.

تعودي ان تخاطبيني باحترام، واذا لم تفعلي، فاني اقسم بالله انك ستجدين نفسك محاطة بالمتاعب.

وعاد لوجهها لونه الطبيعي، غير ان شعور الخوف ظل يراغقتها. وقالت:

- نعم يا خوان، اني تغيرت كما تقول. اعترف بانك هزمتني وتمكنت من اجباري على الزواج منك بسبب ضعفي. لو تسنى لك ان تعيد الكرة الآن لفشلت من البداية. ولو كانت لدي الشجاعة التي املكها اليوم، لكنت تركتك منذ شهور.

يهده اذار يدها واخذ ينظر في راحتها باهتمام، وروكان تحديق في

٥ - الشر بالمرصاد

وقفت روكسان تراقب السيارة الفخمة تنهائى على الطريق متجهة نحو بوابة المزرعة الكبيرة. وما ان دخلت البوابة واقتربت منها ورأت خوان جالساً خلف مقودها حتى اطبقت عينها في لحظة بأس. كانت في غيابه تشعر بالارتياح اما الآن وقد رجع، فعاد اليها بؤسها القديم. فكرت بمطالبه العقيمة وكيف كان يصصر عليها ان ترتدي الثوب الذي يروق له دون اي اعتبار لمشاعرها واحاسيسها. فهي تكره هذه الأمور. تكرهها لأنها تنظر زوجها، هي مارتا، حبه الأول والوحيد. ما هو الحافز الذي دفعه لابتكار تلك الخطوة الجهنمية التي اوصلتها الى هنا؟ نظر الى رسمها واذا بالشبه واضح بيتها وبين حبيته التي غابت، ثم عخط مع مارتا موضوع التعرف اليها، ثم ارتكب جرمه الشنيع ليجرها الى الزواج منه. عفريت فقط يقطع كل هذه المسافات ليحصل على ما يريد. وكيف لا يكون اللون خوان ذلك العفريت والجميع يلقبونه بالنسر الأسود؟

وما هي الا لحظات حتى توقفت السيارة امام المدخل. وقبل ان يترجل منها خوان، رمق روكسان بنظرة سريعة متعجرفة، ثم نزل من السيارة. ووقف برهة غير قصيرة قبل ان يصعد وهما يتبادلان التحديق من دون ان يتفوها بكلمة واحدة. في الواقع، من الصعب جداً على المرء ان يجد شخصين مختلفين الى هذا الحد فعينا روكسان البنفسجيتان تؤمان بالاخلاص، بينما عينا خوان الداكنتان تخشان في اعماقهما اشياء لا يسر غورها. وفيها واسع سخي كله دقة وعاطفة بينما فمه رقيق نحيف،

وجهه وعينه الخنوتين وقعه الذي يرسل الكلمات ببطء. صفات تبدو غريبة في شخص هو في منتهى القساوة والغلظة. وقال:
- لدخل الى المنزل.

شعرت بأن عليها ان تقول شيئاً. سألت:

- هل كانت الرحلة موفقة؟

- وهل يهيك الأمر؟

هزت كتفها علامة اللامبالاة وقالت:

- ليس بالضرورة.

قال والشرر يتطاير من عينيه:

- توقفني عن ذلك وتذكري من اكون.

ثم رفع ذقنها وهزه هزاً عنيفاً وأضاف:

- انت تجبريني على اللجوء لضربك يا روكسان.

ارتجفت وهزت رأسها متسائلة عن الشجاعة التي اعتقدت انها تمتلكها قبل قليل وصمتت، فهي لم ترد اثارته اكثر كي تتجنب تنفيذ وعيده. وعاد ليقول بهدوء:

- لم نجيب على سؤالك يا روكسان؟

- وهل هناك حاجة للتعبير بالكلمات؟ لماذا تريد اذلالني لتجبرني على

الخنوع؟

عسى خوان قليلاً ثم سحب يده عن ذقنها. لقد تكلمت روكسان بلطف وبصوت مرتجف ونساءت ان كانت ستشهد اليوم الذي يفقد فيه خوان سيطرته على نفسه ويفقد تهديده. ومنفس يائسة قررت انه لا محالة من الهرب، وعلى نوم ان يسهل لها ذلك. وفيما هي في مجال التفكير والتساؤل جاء رد خوان مفاجأة لها اذ قال بصوت ناعم رقيق:

- لا يا روكسان، أنا لا اريد اذلالك.

واتبع ذلك بمفاجأة ثانية اذ اقترب منها ووضع ذراعه حول كتفها بمتهى اللطف والحنان ودخلا سوية الى المنزل.

وبينما كانت ترتدي ثيابها وتستعد للعشاء، اخذت تفكر بما حدث فاستغربت كيف انها لم تبعد تلك الذراع عن كتفها ولم تبد استياءها من لمسها، حتى ولا قامت بإشارة بسيطة تعبر عما تكن تلك النفس من

اشمئزاز تجاهه. وعندما نزلت من غرفتها، كان خوان واقفاً عند اسفل السلم. وتعجبت، اذ غمرها شعور خفي بانه كان ينتظرها كل هذا الوقت، وتعجبت اكثر اذ رآته ينطلق نحوها بإسماً، وهو الذي لم يتسم سوى مرة واحدة منذ ان تزوجا وقال:

- تبدين رائعة الجمال يا روكسان.

مفاجأة اخرى اخرستها، فوقفت والحيرة تملأها، ليس فقط من تصرفاته بل من مدى تأثير ذلك عليها شخصياً، اذ انتابها شعور بأن كرهها له قد زال، وتوصلت بينها وبين نفسها الى نتيجة وحيلة وهي انه من الافضل ان لا تقوم بأي عمل قد يستغزه. فبادلته الابتسامة وقالت بخجل:

- شكراً.

انشرح وجهه وجمعت ابتسامته، ثم دعاها الى الشرفة لتناول المرطبات. اختار شرفة تقع بالقرب من غرفة الطعام تطل على القسم الجنوبي من المزرعة، على بحيرة هادئة تعكس نوراً فضياً على ما حولها، وجمال الحديقة بدا رائعاً من خلال الخيوط الحمراء الذهبية المترامية على الاشجار الباسقة والازهار. كان التسيم ينسل ببطء حاملاً معه رائحة الورد وحبير ازهار الليمون والياسمين، تمتزج كلها لتضفي على الجو رطوبة ونداءة، يزيده حلاوة طائر جميل اللون، يظهر بين الحين والاخر ثم يختفي. وينساب صوت زوجها برقة يعرض عليها كوباً آخر من الشرب، فضبلته شاكرة.

- تبدين سارحة الذهن هادئة.

اومأت برأسها موافقة وقالت:

- انه لمكان رائع هنا. وهادئ جداً.

- نحين ان نستمتعي به بسكون؟

بسرعة حولت نظرها عن الحديقة وراحت تتأمل مظهره الأنيق ومسترته البيضاء وربطة عنقه. غير ان كل ذلك لم يغير شيئاً من ملامحه المرعبة.

وفاجأته بالسؤال:

- اتود ان تتكلم؟

فأجاب بعد ان سكب لنفسه كوباً آخر:

- جميل ان نسامر.

اطرفت هنية قبل ان تجيب:

- وهل هناك شيء بيننا للمحادثة؟

- نستطيع ان نجد شيئاً.

تهدت بعنق وقالت:

- لا ادري ان كان ذلك صحيحاً.

- لا تريدان ان نتكلمي يا روكسان. اليس كذلك؟

احتارت روكسان في امرها. كانت تختلف عنه كثيراً. الا انه بدا ناعماً رقيقاً، فتذكرت اشارة توم بانها ارادت الزواج منه بطريقة لا شعورية. كانت اشارة غير معقولة. كان عليها ان تقر ذلك، غير انها لم تفعل. على العكس، بقيت حقيقة هذا الامر تزيدها ارتباكاً حتى تلك الساعة التي تجلس فيها مبهورة بجمال الطبيعة وسكونها. تذكرت حبها لجويل، غير ان صورته بدت باهتة في تخيلها.

صدر عن زوجها تنهيدة ذكرتها انه ما زال ينتظر اجابة على سؤاله فتبسمت قائلة:

- طبعاً اريد الكلام. غير انه ليس لدي الكثير لاقوله، او على الأقل، لا يثير الاهتمام.

اجاب على الفور:

- تعوز كليتا الرشاقة في التعبير، اليس كذلك يا روكسان؟

فكرت بانها هي التي تعوزها الرشاقة في التعبير وليس هو. ثم سألته بنبرات جدية كي تصفي على الجو بعض الارتياح:

- اخبرني. ماذا كنت تفعل في مدينة مكسيكو؟

- كانت رحلة عمل، نزلت اثناءها بضيافة اختي المتزوجة مارغريتا. هنا اصبحت روكسان متشوقة لتعلم المزيد عن اخته. وسألت عن شكلها ومنذ متى تزوجت؟ وكم عمرها...

وتبسم خوان فلاحظت روكسان علامات الاهتمام على وجهه. فاعترفت انه במקانه ان يكون وسيماً غير انها اضافت، وسيماً بتزمت. فهو دائماً يبدو متحفظاً متكبراً وقاسياً بعض الشيء... اجاب:

- في الواقع، لا تشبهني ابداً. هي ذات شعر بني خفيف وعينين زرقاوين. انها جميلة جداً او هذا ما اعتقده انا شخصياً وجواباً على السؤال الثاني اقول: مارغريتا متزوجة منذ سنتين ونصف سنة وعندها صبي عمره

سنة واحدة، اذن انت خالة. اما عمرها فخمسة وعشرون عاماً.

- عندها ولد...

وعادت بها الذكرى الى جويل واحاديثها عن الأولاد وكيف اتفقاً معاً على ان العدد المفضل لديها سيكون ولدين، وتذكرت كيف انها تكلمت عن ذلك الموضوع بحياء في مراحل علاقتها الأولى. وسألها خوان بصوت لطيف:

- التحبين الأولاد؟

اومأت برأسها بغضوبة قائلة:

- ربما في يوم من الأيام.

- ربما.

وتهمهم وجهه خوان. فعضت روكسان على شفتها نادمة على تسرعها بالاجابة. وقالت لنفسها بانها لا تريد ولداً من خوان. فذلك مستحيل.

اغرق هنيهة قبل ان يقول لها بشيرة قاسية:

- لندخل الى المنزل. هيا اكمل شرايك.

- متأسفة...

وارادت ان تكمل، وبسرعة قاطعها قائلاً:

- اتعجب من اعتذارك. لست بحاجة لذلك. فالأمر، في أي حال،

ليس له أي تأثير.

نهضت وحالة من البؤس تغمرها، حيث انها عادت مع خوان الى نقطة

الصفر. انها غلطتها هذه المرة ولكن، تساءلت لماذا حالة البؤس هذه؟

كانها لم ترد بالواقع تحسين الأمور مع زوجها... وعاد اليها الرعب.

حاولت ان تتخيل وجه جويل وقشلت... ماذا سيحدث لها؟ نظرت الى

الرجل الجالس امامها وهو يحمل كأسه بيده وعيناه تحدقان فيها بحنان.

مستحيل قالت لنفسها، فعل الرجل تبدو علامات الحزن والوحدة. وهزت

رأسها بطريقة غريبة وهي تردد، كيف يكون رجل مثل خوان تعود العيش

لوحده، وحيداً؟ كل ذلك مجرد تخيلات منها. وشعرت بسيل من العاطفة

يسيطر عليها، وفي الوقت نفسه، برغبة ملحة لتقوم بعمل شيء يهدئ من

تعاستها. وقالت وهي لا تدري كيف تصيغ الكلمات لتعبر عن رغبتها

الحقيقية:

- هل علينا ان ندخل الآن؟ الجورائع هنا... اليس باستطاعتنا البقاء لمراقبة غروب الشمس؟

جحظت عيناه الداكنتان وظهرت عليه علامات الحيرة الأمر الذي ادهش زوجته. فالحيرة وقوته الجامعة امران لا يجتمعان لدى خوان. ثم قال: - اهذا ما تريدان يا روكسان؟

لفظ خوان اسمها بطريقة جذابة لم تلاحظها منذ زواجها، وذلك لسبب بسيط هو انها لم تكن لتصغي الى كلامه من قبل بالاهتمام والتركيز ذاتها، واجابته:

- نعم يا خوان. اما اذا كنت تفضل الدخول... فقاطعتها خوان مبتسماً وموافقاً:

- سوف نبقى هنا بعض الوقت.

وبحياء غريب عرض عليها كوباً آخر من الشراب، فقبلته بالرغم من انها لم تكن تشعر بحاجة اليه. وبينما هو يسكب لها الشراب، التفت نظراتها وابتنسها. شعرت روكسان بسعادة لا توصف. كانت تعلم بان ظاهرة غريبة تحدث. لم تحاول ادراك ما تعني وبدأت بالتحدث الى زوجها الذي عاد ليذكر اخته مرة ثانية فقالت له:

- احب الاجتماع بها وبعض اقاربك الآخرين؟

- مستجمعين بهم (ثم اضاف والابتسامة تغمر وجهه) سوف ادعو مارغريتا وزوجها لزيارتنا يوماً. فهما يشوق للتعرف اليك. لا ريب انهما يعتبران مسألة عدم الاجتماع بها غريبة نوعاً.

- لقد تقبلا منذ زمن بعيد فكرة كوني رجلاً غريباً وانطوائياً. قلت بانها متشوقان لرؤيتك، الا انني لا اسمع ابداً لأحد من الناس بأن يتدخل في حياتي الخاصة. فهما لن يأتيا الى هنا بدون دعوة، او الطلب بالسماح لهما بالحمي.

هزت روكسان رأسها موافقة وقالت:

- كم غثبت ان يكون عندي الكثير من الأخوة والأخوات ولا اعلم كيف استطعت ان تنقطع عنهم بالطريقة التي فعلت؟

- كان هناك سبب لذلك كما تعلمين.

لم تصدق روكسان ان حديثاً كهذا يجري بينها وبين زوجها. وحسب

انفاسها عندما تطرق الحديث بطريقة غير مباشرة الى موضوع مارتا معتقدة بأن وقع ذلك سيكون هائلاً عليه. غير انه لم يتأثر ابداً فظنت ان خوان قد شفي تماماً من معاناته الطويلة.

كانت الشمس تغطس في البحر، والألوان تتغير بشكل مذهل لم تشهد روكسان مثيله من قبل، فاندفعت تقول:

- انظر يا خوان... كأن احدهم يرسم ببراعة خطوطاً ملونة على ريش طائر.

لم يعلق خوان بشيء. واستدارت لتجده يخلق في وجهها وليس في الوجه المتألق في رحاب السماء. احمرت وجنتاها وحولت نظرها عنه، واذ بضحكة خفيفة تضع حداً للسكون ويمد يده ويربت على خدها ملاطفاً، فتقبل ذلك من غير استياء او ارتعاد. وسألت نفسها ما الذي حدث لها؟ ولم تشأ ان تذهب الى ابعد من هذا. وبعد ان وقف وشرب ما تبقى في الكوب تتمت قائلاً:

- انك لن تشاهدي غروباً كهذا في اي مكان آخر.

- وكيف تكون هناك ألوان بهذا العدد؟

قالت ذلك وهي تمهدق بتلك الألوان الجميلة التي تتحول من الزهري الشاحب الى اللون الوردي الى الازرق الى النحاسي اللامع. انها قوس عظيم من الاضواء والألوان انتشرت في السماء وبدت كأحد جناحي طائر ضخم. وما هي سوى لحظات، حتى غاب الافق وظهر البحر كأنه كتلة من النار تشتعل. وما ان ادارت روكسان رأسها حتى بادرها خوان قائلاً بصوت ناعم:

- الطبيعة رائعة.

ومد يده نحوها ليساعدها على النهوض ووضع ذراعه حول عنقها وشدها نحوه بمطف ظاهراً، ثم اردف قائلاً:

- انتهى كل شيء يا روكسان... لنذهب الآن لتناول العشاء.

كانت روكسان تجلس امام طاولة الزيتة تمشط شعرها وتفكر في أحداث ذلك المساء. كانت سعيدة وغمت لو ان تلك الليلة لم تنته. غير انها تدرك بانها طوال الوقت حذرة يغمرها شعور الجالس على حافة سكين وكان الاثيان بأية حركة غير ملائمة كاف لاختلال التوازن وجعل زوجها يعود الى

عنجهيته وغضبه. وتساءلت لماذا تصرفت بهذه الطريقة. وعندما لم تهتد الى الجواب، اقوت بان علاقتها بخوان دقيقة وانه هو الآخر يجلس على حافة السكين، وان علاقة من هذا النوع غير مريحة. لكن تلك الليلة برهنت لها ان بذل قليل من الجهد يجعل حياة كليهما اكثر سعادة. هل هذا ما تريده؟ ثم قالت لنفسها بان المهم الآن هو الفترة ما بين الحاضر وموعد تركها لزوجها، ويجب عليها ان تجعل تلك الفترة تمضي بشكل مريح.

وفيا هي مستغرقة في التفكير لفت انتباهها صوت صرير الباب بين غرفتي النوم، وما ان تطلعت في المرأة حتى شاهدت زوجها واقفاً في الباب. ارتجفت قليلاً وغنت ان لا يكون قد لاحظ ارتباكها اذ ما زال في نفسها بعض الحنو تجاهه وقالت:

- انا تعب يا خوان.

اقرب منها ووقف الى جانب كرسيها وقال:

- الا تريدني مني البقاء؟

كان تأثير رده عليها غريباً. فبدلاً من ان يثور مذكراً اياها بانه زوجها وله حقوق عليها، اكتفى بذلك القول الامر الذي ازال كثيراً من الاستمزاز الذي كانت تشعر به تجاهه. ولم تصلمه بشكل عنيف بل اعادت:

- انا تعب.

ولم تجد شيئاً آخر تصفيه الى ذلك.

تقدم منها خوان ولمس اعلى رأسها قائلاً بلطف:

- حسن اذن. تصبحين على خير.

وقفل عائداً الى غرفته.

نظرت الى الباب بدهشة لا تصدق ما سمعته منه. ماذا حدث له؟ اين اخفى جبروته وعطرسته، وشعور اللامبالاة تجاه ما تعاني، وتجاه آلامها المبرحة التي كانت تسببها لها معاملته الخالية من كل شفقة ورحمة؟ ونهضت اخيراً، ثم آوت الى فراشها وهي تشعر براحة بال لأول مرة منذ زواجها عدا تلك الأيام القليلة التي كان خوان فيها خارج المنزل. فلا توتر الليلية ولا خوف ولا صرير ابواب ولا ارتعاد ولا استمزاز. تهتدت روكسان دليل الرضى واستسلمت لنوم عميق مريح.

في صباح اليوم التالي، نزلت الى الحديقة وراحت تتجول في ارجائها.

وبعيداً، في ناحية مشجرة كان هناك هيكل صغير قررت روكسان ان تزوره مرة ثانية. لقد زارته مرة من قبل شعرت اثناءها انه كان مهملاً وظنت ان المكان لم يطرأ احد منذ سنوات عديدة. وصلت الى هناك ووجدت الباب مفتوحاً. وما ان سارت قليلاً باتجاهه محاولة اغلاقه، حتى شعرت فجأة بتوقف انفاسها وهي لا تصدق عينيها. فامام المذبح في الداخل كان زوجها راكعاً يصلي. انها لصدمة صاعقة... خوان راكع يصلي! امر لا يصدق.

بقيت روكسان فترة من الوقت واقفة مكانها لا تتحرك، لا تصدق ما رأت بأم عينيها وراحت تعيد لنفسها عبارة وخوان يصلي، مرات ومرات لتتبع نفسها بما رآته عيناها. تحرك خوان فاخذت تبتعد بهدوء ثم تركض اذ لا تريده ان يعلم انها رآته في ذلك المكان المتواضع. وتساءلت لماذا كان يصلي؟ وكيف لرجل مثل خوان ان يكون بحاجة الى الصلاة؟

وعندما جلست الى مائدة الفطور كانت تشعر بالارتباك والحيرة. تبسمت عندما سألتها ان كان هناك ما يزعجها، واجابت:

- لا شيء يا خوان.

قال بعد برهة صمت:

- كنت افكر بان نذهب لزيارة אחتي وزوجها. وجدت هذا افضل الآن فزوج אחتي منهمك جداً باشغاله. وبذلك نوفر عليه عيب التعطيل والحسارة.

سأله روكسان عن نوع عمله فاجاب:

- هو صاحب مصنع للادوات الكهربائية.

نظرت اليه قائلة:

- احب ان ازورهما. متى تفكر بالذهاب؟

- نذهب في اي وقت.

فاخذت تفكر في توم وفي زيارتها الروتينية له، لكنها كانت نهت بانها لن تستطيع الذهاب اليه كالعادة في المستقبل كيلا يتابه اي شعور بالقلق. وادف خوان:

- ربما نذهب الاسبوع المقبل. هل يوم الاثنين مناسب؟

اومأت برأسها علامة الموافقة وسألت:

- كم من الوقت سنمضي هناك؟

- بضعة ايام او اسبوع على الاكثر.

وما ان انتهيا من تناول الفطور، حتى عاد خوان الى غرفته التي يعمل فيها، وتناولت روكسان كتاباً حصلت عليه من مكتبة توم، واسترخت على مقعد في غرفة الجلوس تقرأ. وما هي الا دقائق حتى جاءت لوييتا تحمل في يدها تافضة للغبيار وهي تقول:

- لم اكن اعلم انك موجودة هنا يا سنيورا... انني اقوم ببعض التنظيف.

القت روكسان نظرة على كل ما حولها وقالت:

- تنظيف هذه الغرفة قامت به دولوريس قبل الفطور.

شعرت عينا العجوز وقالت بغلاظة:

- حسن اذن. انا لم آت بهدف التنظيف، بل للتحدث اليك.

انقضت اعصاب روكسان، غير انها حافظت على هدوئها، وقالت:

- عن ماذا؟

مشت نحوها لوييتا بانحراف، فادارت روكسان رأسها لتبعد عنها رائحة فمها الكريهة، ثم حنت العجوز جسمها التحيل وقالت:

- انت وصديقك... أعني حبيك.

التفت نحوها عابسة لا تفهم ماذا تعني وقالت:

- عم تتكلمين؟ انت مجنونة يا لوييتا... ارجوك ان ترحلي من هنا، وصرخت لوييتا:

- أأنا مجنونة؟ انت تدعيني مجنونة؟ انت تبهيني وسوف تندمين على ذلك.

- طلبت منك ان تغادري هذا المكان.

- أغادر عندما اريد وبعدما اكون قد فرغت من كل الذي انوي قوله.

- اسرعني وبعدما اتركيني وشأني.

وسيطر على الغرفة صمت ثقيل قبل ان تبدأ العجوز بالكلام لتقول:

- تبعثك الى دكان صاحبك.

- انت...؟

وشعرت روكسان ان جيلاً من الجليد هوى على رأسها وازدادت:

- تبعثني الى المكتبة. كيف تخرأت على ذلك؟

اجابت العجوز بخرخرة متجاهلة عبارة روكسان الأخيرة:

- المكتبة يا سنيورا... انها دكان حبيبك.

وقع الكتاب من يد روكسان من قرط غضبها وارتعادها وصاحت بالعجوز:

- اخرجي من هنا.

قالت ذلك وهي تتخيل كيف سيكون رد فعل خوان عندما يعلم بالامر وارادت قائلة:

- اخرجي من هنا ودعيني وشأني.

ضحكت العجوز ضحكة شريرة خبيثة وقالت:

- خائفة... خائفة انت من النسر الأسود. يجب عليك ان تخافي لانه

سيقتلك. نعم يا سنيورا... لو علمت بكامل قصته لما تزوجت منه. دون

خوان قاتل. لقد خنق رجلاً في احد الايام.

امتنع لون روكسان وقالت غير مصدقة ما تسمع:

- خذ... خنق رجلاً... لا... لا... اصدق ذلك.

غير انها رأتها يصلي. هل كان يصلي من اجل المغفرة لجريمة ارتكبتها؟ وقالت العجوز:

- انسي هذا الموضوع الآن. جئت كي اكلملك عن علاقتك بتوماس وكيفيلد.

- زوجي يعلم اني كنت في مكتبته.

قاطعتها العجوز قائلة:

- انت خائفة اذن من اعلام زوجك بالامر.

- قلت لك انه يعلم بذلك.

- ربما زوجك يعلم انك تحدثت معه في دكانه. لكنه لا يعلم بانك زرتة

في منزله. هل يعلم كم مرة ترددت عليه اثناء غيابه؟ وهل يعلم انك سبحت معه؟

سألت روكسان بدهشة:

- وكيف علمت بكل هذا؟

- الاخبار تسير بسرعة يا سنيورا. لم تكوني حكيمة بالطريقة التي

تصرفتي بها، وحبيك هو ايضاً لم يكن حذراً. حياته في خطر الآن.

دون خوان سوف يقتله عندما يعلم بالأمر.
ورغم الخوف الذي اعتري روكسان، وضربات قلبها المتسارعة،
استطاعت في الأخير ان تهدى نفسها وتقول:
- مثل حبه لك.

ارتجفت روكسان وهي تفكر بانها تقف بحضرة انسان لا يعيش في هذا
العالم، ولم يسعها الا ان تطلب من لوبيتا مغادرة المكان في الحال، الأمر
الذي تجاهلته العجوز واستمرت مندفة كالنهر:

- انه يمضي معظم وقته يصلي باكراً في الصباح كي لا تربه. انه يصلي
لعله يرتاح من الآله. فانا اراقب بعينين تريان كل شيء. وانا اجد بان كل
شيء لا يسير على ما يرام. ومنذ ليلة امس رأيت الأمور تتغير. لقد كان
مختلفاً في معاملته لك عن ذي قبل.

سئها روكسان:

- وكيف علمت بكل هذا؟

اجابت لوبيتا:

- قلت لك بانني اراقب واصغي ايضاً يا سنيورا. فذلك اعتبره من قبيل
الوفاء لحبيبي مارتا. نعم اصغي. وكان واضحاً انه تغير...
قاطعتها روكسان لتسأل:

- كيف تغير يا لوبيتا؟ قلت بأن زوجي ما زال مغرمًا بمارتا، ثم قلت انه
تغير. اعتقد انك على وشك ان تقولي انه اصبح يهتم بي.

اجابت لوبيتا:

- ابدأ. كل ما اردت قوله هو انه يغازلك الآن بهدف ان ترضي عواطفه
فقط.

- كنت خلف الباب تستمعين الى احاديثنا اليس كذلك؟

- الواجب يقضي علي بان افعل اي شيء من اجل حبيبي مارتا.
المغازلة تلك، بما فيها مسألة تعريفك باقارب لا تهمني. يجب عليه ان يبقى
وفياً لحبه الأول. علمت اشياء واشياء عنك بما فيها علاقتك بتوماس
وكيفيلد.

- انها علاقة بريئة يا لوبيتا.

- دون خوان لن يصدق انها كذلك، سوف يقتص منكها معاً وبما انني

ومارتا لا نريدك هنا، سوف اساعدك على الهرب. باستطاعتي ان اسهل
عليك مغادرة المكسيك.

- واذا لم ارد المغادرة؟

- القرار لا يعود لك بل لحبيبي مارتا. ان روحها تهيمن في كل مكان
هنا. فهي لا تنسم ولا تضحك. هي تبكي لانك انت هنا. ستوافقين على
مغادرة هذه البلاد والا سأضطر لاعلام دون خوان عن علاقتك بتم...
فكري بالأمر يا سنيورا. اعطيك مهلة اسبوعين فقط.
وامتدارت لتغادر الغرفة وتغيب.

كهنه . اذن لماذا يصلي باستمرار ؟ هل يطلب المغفرة على جريمة قتل ؟
وسرعان ما نفت روكسان هذه الفكرة جملة وتفصيلاً . لا شك ان عقل
لوبيتا قد اصاب بحس من جراء حبها المفرط للفتاة الراحلة ، كما شككت
روكسان في صحة اقدام خوان على خنق رجل وعزت الامر الى ان لوبيتا
اخترعت هذا التخييل لتزرع الرعب في قلبها لأنها زوجته .

وفكرت روكسان في نفسها ، لو يتعلم ان يحبني قليلاً لاستطعنا ربما ان
نتجع في زواجنا . . . لكنها ما لبثت ان تذكرت انها لن تستطيع ابداً
التوصل الى عواطفه بسبب حبه الراضخ للفتاة الميتة . . . وعادت تقول
لنفسها . . . لا ، لن نفلر ابداً ان نحب بعضنا كزوجين ولذا من الأفضل
العزم على تركه .

هذه التساؤلات واخرى من نوعها كانت تشغل بالها في اليوم المقرر
لذهابها معه الى زيارة اخته وزوجها والمكوث عندهما لبضعة ايام . كانت في
غرفتها حين اعدادها صوت خوان الى الواقع لحظة دخل عليها وسألها ان
كانت مستعدة لبدء الرحلة . اومأت بالايجاب وأشارت الى الحقيبة المفتوحة
على السرير :

- سأخفف شيئاً منها اذ لا استطيع اقلها .

تقدم من السرير وسألها :

- ما الذي تودين اخراجه منها ؟

- ذينك الفستانين . . . على ما اظن . . .

احدهما كان الثوب الأخضر الذي اعجبه ، لكنها حللاً رأته نظرتة للساعة بدا
مهماً جداً ان تأخذ ذلك الفستان بصورة خاصة . فقالت على الفور :

- سأفرغ الحقيبة ثانية لأفرز ما يمكنني الاستغناء عنه .

الا انه هز رأسه قائلاً :

- هناك حقائب اخرى بالطبع ويمكنك استعمال احداها .

- لم ابحث في الخزانين . هاتان الحقيتان أثبت بهما معي .

وأشارت الى الثانية المقلدة والجاهزة لنقل الى السيارة .

فاقترح بقوله :

- اعطني الفستانين لاضعهما في إحدى حقائبي وفيها بعض المتسع .

ناولته ايامها وهي تستغرب شعورها بالسعادة والانشراح بالرغم من

٦ - قلبه الذي مات . . .

اسبوعان . . . فكرت روكسان بتهديد لوبيتا لفترة طويلة بعدما غادرت
المرأة غرفتها . لكن بالرغم من ان فكرة الحرب كانت تلاصق افكارها منذ
البداية الا ان اضطرابها الى رسم خطة التنفيذ بدا الآن أقل إلحاحاً . فهي
لا تستطيع الانكار بأن ثمة تغييراً قد طرأ على موقفها العاطفي من زوجها ،
وفي نفس الوقت تواجه حقيقة صعبة أخرى هي انها لن تستطيع ابداً
التوصل الى قلبه حتى لو عاشت معه عمرها كله . يبدو دائماً ان قلبه مات
مع مارتا ، وروحه ستظل تعانق ذكراها . لقد احتاج فقط الى عزاء أو
اعتناق نفسيين فاختارها زوجة . هذا هو الدور الذي رسمه لها ، فيها هو
يتحصن ببرود تجاه اي عذاب قد تعانیه بينها وبين نفسها . حري بها ان
تكرهه الآن كما كرهته في البداية لكنها وجدت ان كراهيتها تضعف مع
مرور الأيام ، كذلك يبدو انها يتقاربان اكثر .

لقد اكدت لها لوبيتا ان زوجها يشملقها ليس الا . وقد يكون هذا
صحيحاً ، لكن بما انها لا تستطيع التحقق من ذلك فما عليها الا ان تأخذ
هذا الاحتمال بعين الاعتبار حتى لو بدا ان خوان قد بدأ يميل اليها قليلاً .
كما انها أصبحت واثقة من انه لا يبغي الموت في الحقيقة . فهو صار يضحك
بين الحين والحين ، وعندما يتمشى معها في الحديقة مساء . . . وهذه
انطلاقة جديدة تماماً من قبله ، يبدو عليه رضا وسلام حقيقيان . . .
كذلك أوحى اليها لوبيتا انه يصلي بانتظام «سباح كل يوم» وبالسرع عن
روكسان ، سائلاً الله ان يحميه ليرتاح من عذاب فجيعة مارتا . لكنها نشك
في صحة هذا الايجاء لأن قوة شخصية خوان تتعارض مع مسلكية ضعيفة

التهديد المتأرجح فوق رأسها . في أي حال ، على لوبيتا أن تفكر مرتين قبل أن تثبت اتهاماتها لها ، لأن خوان سيصر على أن يعرف منها بالضبط كيف حصلت على معلوماتها . لا شك أن قوة شخصية روكسان في ازدياد مطرد ، والدليل استطاعتها التغلب على غاولها في الوقت الحاضر وانصرافها الذهني إلى مستجدات الزيارة الوشيكة . كانت متلهفة إلى لقاء مرغريتا وزوجها ، وتتطلع بالفعل إلى الرحلة الطويلة وهي تجلس إلى جوار زوجها في السيارة . كذلك تتوقع جلسات بهيجة في المطاعم أثناء تناولها الوجبات على الطريق ، ونزهات قصيرة على الأقدام عندما يتركان السيارة لينشطا عضلات سيقانها .

بيت مرغريتا يقع في سان أنهل وهي منطقة يستغرق الوصول إليها من مدينة مكسيكو حوالي ثلاثين دقيقة بالسيارة . ولدى اقترابها من البيت كان الوقت متأخراً جداً .
وسألها خوان :

- انشعريين بتعب يا روكسان ؟

خجل إليها أنها استشفت قلقاً بسيطاً في صوته وهزت رأسها نفياً ، فأضاف :

- لقد وصلنا .

ثم انعطف على عمر مرصوف بالحصى يعلوه من الجانبين حائطان عاليتان . أوقف السيارة ، وفي اللحظة ذاتها انفتحت البوابة الحديدية على يد رجل مكسيكي شاحب الوجه يتعل صدلاً ، كان قد أرسل لينتظر وصولها . عاد خوان يقود السيارة عبر البوابة التي أقفلها الرجل خلفها . وفي ضوء القمر رأت روكسان بيتاً أبيض ، شامخاً ومهيئاً ، يقوم وسط ساحة معبدة . أوقف خوان السيارة ، وحالما ترجلا منها ظهرت اخته وزوجها على الباب الأمامي وكان أيضاً من الحديد الثقيل المزخرف وقد انفتح بلا صوت بسبب مفاصله الزيتية .

تبادل خوان ومرغريتا عبارة سريعة بالإسبانية فاستنحت روكسان أنها تحية خاصة بين الأخ واخته ثم قام بالتعريفات المطلوبة . هتفت مرغريتا باخلاص وسرور واضحين :

- يبهجنا أن نلتقيك يا روكسان !

انتظرت روكسان بأنفاس عبوسة لينبأ تمنعت الفتاة في وجهها لكنها لم تكشف بكلمة أو بتعبير عما إذا رأت فيه أي شبه لوجه مارتا . ثم دخل جميعهم الردهة فلاحظت روكسان بسرعة اثناً وبلاطاً لامعين ولوحات في أطر مذهبة وثرنيات من البلور المصقول .

وقال لها اواردو بصوت هادي مهذب :

- لقاؤك يسحرنا يا روكسان .

بدأ طويل القامة مستقيم الظهر ووسياً وهو يقف إلى جانب زوجته الجذابة ويصافح روكسان بقبضة متماسكة ودودة . فشعرت بالدفء يسري فيها ويدهشة للذيدة من لياقة أهل زوجها .

- هيا تفضلا . لا بد انكما متعبان وجائعان ومتقلصا العضلات بعد هذه الرحلة الطويلة .

فاحتج خوان بشرة غضب بسيطة :

- لا تشعر بأي من هذه المزعجات ، فقد استرحنا قليلاً وأكلنا ، وغادرتنا السيارة عدة مرات حيث نخلصنا من أي تقلص عضلي بمحتمل الحصول . واستدار ينظر إلى وجه زوجته قائلاً :

- اليس كذلك يا عزيزتي ؟

أومأت مبتسمة وواقفته يهدوء :

- نعم يا خوان . لقد فعلنا كل ذلك .

فأعلنت شقيقته :

- هذا لا يمنع أن نتناول شيئاً من الطعام ، وقد ترغب روكسان في تغيير ملابسها قبل العشاء .

ثم تبادلوا حديثاً خفيفاً لبضع لحظات تعرضت روكسان في خلالها لعدة نظرات متحفظة . ثم أخذتها مرغريتا إلى غرفتها حيث وجدا حقائبهما قد سبقتهما إلى هناك . وقالت صاحبة البيت :

- العشاء سيكون جاهزاً في حوالي ثلث ساعة .

فأجابها شقيقها بلياقة :

- ميسابنا ذلك تماماً . شكراً يا مرغريتا .

ابتسمت لروكسان بإشراق وانسحبت مغلقة الباب خلفها .

وجواباً على السؤال الصامت في عيني زوجها قالت روكسان :

- انها ساحرة الشخصية ، وكذلك ادواردو .
 فقال وهو يرفع احدى حقائقه ويضعها على كرسي :
 - سترين طفلها غداً . . الوقت متأخر لكنني بحاجة الى ابدال ملاسي .
 لاذت زوجته بالصمت . لم يسبق لها ان غيرت ثيابها امامه وشعرت
 الآن بعجزها عن ذلك . ثم سألته :
 - هل لي باستعمال الحمام قبلك ؟
 فرمقها بنظرة مدركة وقال :
 - سأقصد الحمام الآخر الموجود في الرواق وسأبدل ملاسي فيه ايضاً
 كي تنصرفي بحرية .

توردت للملاحظة وشكرته بامتنان . لكن عندما خرج وقتت تخدق في
 الباب المغلق . . . انه كثيراً ما يدهشها هذه الأيام بلطفه المتزايد وبفهمه
 ويتواضعه الغريب الذي تشك في ترحيبها به . وهذا التواضع لا يظهر دائماً
 في وضوح بل على العكس ، لا تستشفه الا في لحظات حرجة معينة لكن
 مجرد شعوره به يجعلها على الاستغراب .

طالت فترة العشاء بسبب احاديثهم المتنوعة ولم يأووا الى أسرهم الا في
 الساعة الثانية صباحاً . وكما فعل قبلاً ، استعمل خوان الحمام الآخر
 وتعهد البقاء فيه رداً كي يوفر لها الخصوصية التي يعلم انها تحتاجها .
 تأثرت لفهمه الواعي حتى العمق وأحت قلبها يشجه نحوه بدفء ، انما
 لازمته كواليس ذهنها تلك القناعة بانها ليست روكسان في نظره بل مارتا ،
 ولهذا ، عندما احاطها فقط بذراعه لدى صعوده السرير الى جانبها بذلت
 جهداً كبيراً في ان تبدو طبيعية ولا تنفر منه .

امضوا اليوم التالي في انشراح ما بين حديث وشرب قهوة وتناول طعام .
 انسحرت روكسان بالطفل اترك وبلغ سرورها متناه حين سمحت لها
 امه بأن تحمله في حضنها وتعطيه زجاجة الحليب . في السادسة مساء وضع
 الطفل في سريره ، وقال خوان مداعباً انه ما دام استرد زوجته من الطفل
 فسوف يذهب الى منزله . لدى عودتهما الى البيت كان ادواردو يرجع من مكان
 عمله في المدينة وقد اغتسل وبدل ثيابه . صعدت روكسان لتغير فستانها وما
 ان دخلت غرفة النوم حتى طرقت مرغريتا الباب ودخلت استجابة لدعوة
 روكسان . قالت بوجه مشرق :

- لدينا بضعة دقائق للحديث وكنت المحرق للانفراد بك لفترة . أولاً ،
 أود الاعراب لك عن مبلغ سرورنا لدى سماعنا بآثار زواج خوان .
 - شكراً يا مرغريتا .
 - اني اتساءل عن مقدار معلوماتك بالضيقة .
 نطقت مرغريتا السؤال الغامض بعد تردد بسيط . والآن ظهر شيء من
 القلق على عيها الجميل .
 فاستوضححتها روكسان بحذر اذ بدا لها ان زوجها لم يسر الى اخته الا
 بالقليل :

- ماذا تقصدين ؟
 - لقد اعتزل خوان الناس لسنوات طويلة . هل عرفت ذلك ؟
 - اجل ، عرفت .
 بدا الارتياح على مرغريتا لما تأكدت من انها لم تبغ أية أسرار ، وتابعت
 تسأل :

- هل تعرفين السبب الذي دفعه الى الانعزال ؟
 - اجل يا مرغريتا ، اعرفه .
 - اذن هو اطلعك على خطوته السابقة ؟
 - عرفتها من شخص آخر لكن خوان يدرك اني على علم بقصة مارتا .
 - الا يضايقتك ذلك الماضي ؟
 فأجابت روكسان بنبرات اللطيفة المعتادة :

- انه ماض جد بعيد .
 - كنا قطعنا الأمل من امكانية تغليه على فجيعته يا روكسان . . .
 توقفت مرغريتا عن الكلام وغيمت الدموع عينيها .
 - كان الوضع رهيباً . . . حسبنا انه سيظل منقطعاً الى الأبد عن العالم
 وحتى عن أفراد عائلته .
 لم تحذر روكسان كلمة تعليق واحدة ، وبعد هنيهة تماكنت مرغريتا نفسها
 وتابعت :

- انها لأعجوبة ان يتغير الى هذا الحد . . . اصبح الآن رجلاً طبعياً ، يتكلم
 ويضحك و . . . اوه ، استرد سعادته أخيراً وأنا سعيدة ايضاً . كانت كارثة يا
 روكسان ، وكلنا مدينون لك بفضل انشغال اني من عزله .

وهنا انتهى الحديث وتزلت الفتانان معاً لتناول العشاء . لكن خوان
تفرس فيها ملياً لدى دخولها غرفة الطعام واستوضح روكسان الأمر في
وقت لاحق فاعترفت بقولها :

- اجل . جاءت مرغريتا لتحدث معي .

- وهل طرحت عليك اسئلة كثيرة ؟

- بل اسئلة قليلة يا خوان .

- عما استوضحته ؟

تطلعت اليه مباشرة وروت له بصراحة كل ما دار بينهما . فكرر احلى
العبارات باهتمام مرح :

- اذن هما سروران لسعادتي ... آه ، حسن ...

لم يكمل جملة وغير الموضوع فجأة بقوله :

- غداً سأخذك الى المدينة . هذا هو البرنامج المقرر حسبما اخبرني
مرغريتا .

- حسبت اخذك اني سأستمتع برؤيتها ، لكن ان كنت لا ترغب في
ذلك ...

- بالطبع اود ذلك اذ لا يمكنك ان تعودني الى البيت بدون ان تري مدينة
مكسيكو .

- بل اتلف الى ذلك . هل سنقضي النهار هناك ؟

- الأمر يتوقف على رغبتك . فهمت ايضاً ان ادواردو ميلانينا لتناول
الغداء .

اومأت زوجته وعلمت :

- خسارة انه مضطر الى العمل لكن مرغريتا اوضحت انه مشغول جداً
هذه الأيام .

- لا بد ان الأمر كذلك والا لاستطاع ان يتفرغ ليوم غد .

استيقظت روكسان باكراً في الصباح التالي واتسلت من الفراش وزوجها
ما يزال نائماً . وقتت لبعض الوقت تحديق الى الوجه الأسمر الملتصق
بالوسادة البيضاء . كانت احدى يديه منقبضة الأصابع قرب خده ،
وتحركات شفاهه بصمت ولعدة مرات وهي تراقبه . احست بعاطفة مجهولة
تتحرك فيها بلا دافع واضح فأشاحت بصرها عنه . كان قوياً حتى وهو

نائم ، وعندما يتحرك فمه بهذه الطريقة يبدو كأنه طفل نائم يعلم بأنه ضل
طريقه . عبرت الغرفة وأزاحت الستائر ثم فتحت الأبواب الزجاجية
وخرجت الى الشرفة المغمورة بالشمس . كانت على السطح عريشة من
البوغفيلية القرمزية تتدلى غصونها المزهرة على حاجز الشرفة . لمستها
بامترخاء وأرسلت بصرها يحول على فساتين العشب المقلم ومساكن
الزهور . انسحرت بنبات الألياف المتدلية والشجيرة بخضار الكوسا ،
وبالطيور النحيلة ذات الذيل القرمزية التي كانت تغط عليها وتطير عنها
مكررة هذه اللعبة باستمرار . تنشقت الهواء النقي المنعش وشعرت انه كان
بإمكانها ان تحب هذه الأرض الاستوائية الزاهية على مر الزمن لو انها وفدت
اليها في ظروف افضل .

احست بحركة خفيفة في الغرفة جعلتها تستدير صوبها . كان خوان
يراقبها مرتكزاً على مرفقه ، فتوردت خجلاً واعتاطت لأنها لم ترتد شيئاً
يغطي قميص نومها القصير والمحرج . وقال بتكامل :

- نهضت باكراً يا روكسان . منذ متى تقفين على الشرفة ؟

فدخلت الغرفة ووقفت في منتصفها تبحث عن روبا ثم تذكرت انها
علقت خلف باب الحمام . وهنا اجابت سؤال زوجها :

- خرجت منذ قليل . انه صباح جميل .

راح خوان يتفحص قوامها بالتفصيل ، وقال معلقاً :

- بدوت جذابة جداً وأنت تقفين كلوحة ضمن اطار النافذة .

- شكراً .

اجابت بجمود غير مقصود ورأته يقطب حاجبيه قبل ان يقول :

- لا تحبين المديح ، اليس كذلك يا روكسان ؟

هزت كتفها بارتباك وقالت :

- انه ... انه لا يعني شيئاً .

- تقصدين مديحي انا بصورة خاصة ؟

- اجل . هذا ما عنيت .

فأزاح الأعطية جانباً وأجاب :

- اذن لتكلم في موضوع آخر كي لا نفسد هبة هذا النهار المهم بالنسبة

اليك والى مرغريتا .

- الا تتطلع اليه ايضاً ؟

اضطرت الى ان تسأله ، اذ بدا فجأة مهياً ان يشاركها الاستمتاع بهذا اليوم . صمت قليلاً ثم قال وهو يرتدي الروب :

- ايزعجك ان لا اكون متحمساً له ؟

- اريدك بطبيعة الحال ان تستمتع باصطحابك لي ولمرغريتا الى المدينة .

- انك تتحاشين اجابة مباشرة وصريحة . اليس كذلك ؟

تناول حقبة جلدية صغيرة وخرج قاصداً الحمام في الممر وتاركاً ايها تفكر ملياً بتعليقه الغامض .

وبعد نصف ساعة كانت مرغريتا تقول :

- اسمعتما صباحاً ارجو أن تكونا امضيتما ليلة مريحة وممتاً جيداً .

فرد خوان وعينه السوداءوان تبتسمان لها :

- نعمنا بنوم مريح جداً . شكراً يا مرغريتا . . . وماذا عنك انت ؟

- استرحت تماماً . لقد اضطرت ادواردو الى مغادرة البيت باكراً وطلب الى

ايلانكيما اعتذاره عن عدم استطاعته تناول الفطور معنا .

كان على المائدة عصير برتقال وأناناس وايضاً شرائح من البابايا .

تناولت روكسان بعضها وقد سبق واعجبت بهذا الثمر الاستوائي اللذيذ .

رشت عليها بعضاً من عصير الليمون الصغير الحجم . أكلت مرغريتا

فطائر حلوة ، لكنها لم تغفل عن تحضير خبز محمص لروكسان ، والبيض

المسلوق جاءت به مرسيدس الفتاة ذات المربول الزاهي التي ساعدت في

حل الحقائق الى الطابق العلوي ليلة وصولها .

في الساعة العاشرة كانوا في مدينة مكسيكو يتمشون في شارع صغير

تحف به بيوت اسبانية الطراز ، مطروشة بلون زهري وذات بوابات

خارجية وأبواب داخلية مصنوعة من الحديد . كانت هناك حدائق رائعة

امام كل بيت وأناس يكبّون على نكش احواضها وتشذيب اغصانها أو ري

عشبيها بواسطة النباريج . انعطفوا عند الزاوية فاذا بهم في شارع المدينة

الرئيسي جادة باسيو دي لاريفورما الجميلة . كان شارعاً عريضاً ضخماً

تحف به من الجانبين أشجار الدردار والأوكالبتوس وما بين مسافة واخرى ،

يوجد دوار مشجر في وسطه تمثال وحوله اناس يجلسون على مقاعد حجرية

مستطيلة أو مسحون احذيتهم على أيدي صبية حفاة الاقدام ذوي ثياب

رثة ، ولاحظت روكسان انهم يستعملون اصابعهم في وضع الدهان على
الحذاء .

تمشوا في الجادة لأكثر من ساعة ثم اقترح خوان قائلاً :

- اظن من المستحسن ان نأتي بالسيارة لتخرج على المدينة بطريقة اخرى

وبسرعة اكبر .

فوافقت مرغريتا فوراً :

- معك حق فأصابع قدمي بدأت تؤلمني من كثرة المسير .

فوبخها اخوها قائلاً :

- هراء ! انك تبالعين !

ثم التفت الى روكسان وسألها :

- ماذا عنك انت ؟ هل تؤلمك قدمك ؟

فأطلقت ضحكة قلبية . . . واحدة من ضحكاتها النادرة منذ مجيئها الى

المكسيك ، وأجابت :

- كلا ، فاهتمامي الشديد بما أرى لا يجعلني لاحظ قدمي بتاتاً .

- اتشعرين بالاستمتاع ؟

اومأت قائلة :

- كل شيء رائع !

جأوا بالسيارة وقادها خوان الى مركز التسوق ، وهي متفقة شاسعة

تمتد في كل الاتجاهات . اوقفوا السيارة في مرآب آخر ثم انجهوا سيراً على

الأقدام الى شارع فرنسيسكو ماديرو الأول حيث توجد اروع حوانيت

المدينة وأقنعها .

وأوضحت مرغريتا لروكسان :

- هذا الشارع يعادل بوتد متريت عندكم .

ثم رمقت اخوها بنظرة سرية وسألته :

- هل تمنع اذا انفصلنا عنك لفترة يا خوان ؟ اخشى ان بقيت معنا ان

نضجرك بوقوفنا الطويل امام الواجهات الرائعة .

وبدا لروكسان انها طرحت السؤال بعقوبة مصطنعة ، وسرعان ما

وافقها اخوها بقوله :

- كما تشائين يا مرغريتا . سنلتقي بعد ساعة من الآن ونحذر من التأخير

اذ وعدنا ادواردو بملاقاته الساعة الواحدة في الفندق .
انفصلوا بعد ذلك ، وبعد ان سارت المرأتان قليلاً توقفتا امام واجهة
كبيرة تعرض تشكيلة متنوعة وشاملة من المنتجات الجلدية . وسالت
روكسان رفيقتها وكأنها لا تصدق ما ترى :

- هل هذه كلها مصنوعات يدوية ؟
- اجل . وهي ليست غالية الثمن تبعاً لبطاقات الاسعار الملصقة بها .
اليس كذلك ؟

- اسعارها معقولة جداً بالمقارنة مع اسعار الجلد في بريطانيا . اني احب
هذا الجلد فعلاً !

فهتفت مرغريتا بعفوية .

- انت حلوة العشري يا روكسان . ان اخي سعيد الحظ حقاً ونحن جميعنا
لا نقل عنه حظاً بهذه القربى . اخوتي واخواتي سيأكلهم الحسد عندما
اخبرهم اني تعرفت اليك وانك في الواقع افضل زوجة أخ حظيتا بها !
- لا ، لا تقولي اني ...

توقفت روكسان فجأة عن الكلام ، ولما رأت الدهشة في عيني مرغريتا
تابعت بارتباك :

- اقصد ... اعني اني انسانة عادية لا اختلف عن الاخريات .

- هذا تواضع منك يا عزيزتي ، فأنتي كان في منتهى العزوف عن النظر
الى أية امرأة ، ولولم تكوني انسانة مميزة لما استطعت جذب اهتمامه بتاتاً .

أكملت روكسان سيرها في صمت وهي تفكر بالأيام التي ستعقب تركها
لزوجها . ماذا سيقول اهله عنها وكيف سيكون موقفهم منها ؟ لقد عزوا
اليها كل الفضل في تغييره وفي انتشاله من عالم العزلة الموحشة واعادته الى
عالم الناس والحياة . لا ريب انهم سيكرهونها اذا تركته الآن . لكن بما ان
رغبتها في الانفصال عنه بدأت مؤخراً تضحل بسرعة فقد طردت الفكرة
من ذهنها . في أي حال ، عادت مرغريتا تتكلم وسألتها اذا كانت تعرف
السبب الذي حدا بخوان الى الذهاب الى انكلترا في تلك الزيارة التي اسفر
عنها زواجها ، وأكملت السؤال بقولها :

- كلنا اصبنا بدهشة شديدة لما تناهى الينا خبر تلك الرحلة . وحتى الآن
لا استطع التفكير في السبب القوي الذي جعله يقرر فجأة أن يسافر الى

بريطانيا البعيدة عنا .

فأجابتها روكسان موضحة :

- كان قد التقى صديقاً لي . وهذا الصديق دخل اراضي المزرعة
بالصدفة اذ كانت البوابة مفتوحة حينها ، وطلب كوب ماء ليروي عطشه .
وهنا دعاه خوان الى البقاء لبعض الوقت لينينا يستريح قليلاً . لكن الزيارة
القصيرة امتدت الى ثلاثة ايام ، وعندما ودعا بعضها وعده خوان بأن يقوم
بزيارة الى انكلترا .

فعلقت مرغريتا قائلة :

- ما زلت اشعر ان هناك اموراً كثيرة ما زلنا نجهلها . في أي حال ، ان
اهم شيء في نظري هو ان اخي الحبيب قد تزوج وحظي بشريكة تسعده .
لا يمكنك ان تتصورني كم شاخ في تلك السنوات يا روكسان ... بالطبع
نحن لم نره آنذاك لانه رفض أن يدعونا مرة واحدة الى بيته ، لكنني رأيت في
العام الماضي وكان يبدو مرعباً بهزله وتغضن وجهه كأنه رجل في
الستين . . لكن اتوقع الآن ان يسترد ونقه وشبابه يوماً بعد يوم .

وانت كلامها بضحكة سعيدة .

فقالت روكسان :

- ارجو ذلك ...

خرجت الكلمات بشكل آلي من فمها لكنها سرعان ما أردفت وقد
انصت ظنوها تماماً :

- اجل ، ارجو أن يعود الى سالف عهده يا مرغريتا .

ولما التقتا بخوان ثانية رأت روكسان انه كان يتسوق هو الآخر ، وبدون
أن تتروى سألته ماذا اشترى . وهنا عادت مرغريتا ترمقه بنظرة خاصة
شبيهة بتلك التي تبادلها عندما اقترحت ان تفصلا عنه ، جعلت روكسان
تنظر اليهما محيرة .

وأجابها زوجها بصوت مشاغب ومطعم بروح المرح :

- اهتني بشؤوك الخاصة ... الا يستطيع رجل ان يبتاع شيئاً صغيراً
بدون أن يضطر الى كشف هويته لانات فضوليات ؟

فوجدت نفسها تضحك وتعتذر عن حشيتها ، كما راحت تسأل عن
مرح زوجها الصياني تقريباً وهو ينطق تلك الكلمات الرادعة والبطنة

أي خلاف يستحق الذكر . . . رمقت الرزمة التي ابتاعها عدة مرات وهم في طريقهم الى الفندق حيث سيتناولون طعام الغداء مع ادواردو . لم تكن الرزمة كبيرة الحجم إنما اكبر من أن يتسع لها جيبه . تملكها فضول فعلي اذ تأكدت الآن من أن مرغريتا تقصدت انفصالهما عن خوان ليتسنى له شراء ذلك الشيء من دون أن تراه هي ، هذا يعني انه اتفق مسبقاً مع اخته على أن تبعدها مؤقتاً عن طريقه .

حاولت فك اللغز لبضع لحظات أخرى ثم أبعدته عن تفكيرها وهي تؤنب نفسها وتذكرها بوجوب الامتثال لطلب زوجها بأن تهتم فقط بشؤونها الخاصة .

بعد يومين كانا يودعان مرغريتا وادواردو الذي حل انريك الصغير بين ذراعيه وطلب اليه ان يلوح بيده مودعاً الضيفين الراحلين .

وقالت مرغريتا لروكسان وهي تقبل خدنها بحجة صداقة :
- في رعاية الله يا زوجة اخي الحلوة . سنذهب لتراكما قريباً جداً .
ليس كذلك يا ادواردو ؟
- طبعاً يا عزيزي .

وبدوره ، لثم ادواردو خد روكسان . كان رجلاً هادئاً مفكراً لا يشارك في الأحاديث الا قليلاً ويجلس معظم الوقت يصفي الى ما يقوله الآخرون ، لكن هذه المزية تجعله محبوباً الى حد كبير .

ادار خوان محرك السيارة ، وقال وهو يقودها ببطء استعداداً للانطلاق :
- انركم في رعاية الله ! منتظر يشوق ان تراكم قريباً في مزرعة راميريز .

وهتفت مرغريتا مجدداً حين ازدادت سرعة السيارة ومدت روكسان يدها ملوحة من النافذة :

- في رعاية الله يا روكسان ، اعتني جيداً بأخي العزيز !
فأدار خوان رأسه المكمل بشعره الأسود ورمى زوجته بنظرة خاطئة قبل أن يخرج من البوابة الى الطريق وقال باقتضاب :
- انها يجهانك .

ثم ركز اهتمامه على القيادة .

٧- كل شيء ينهار

تسللت لوبيتا بهدوء الى كشك الحديقة الصيفي حيث تجلس روكسان وفي حضنها كتاب مفتوح . كانت عينها البهيمية تلاحقان حلماً جميلاً وشفتاها المكتنزتان منفرجتين قليلاً بيسمة سعيدة ، وقد توزعت افكارها في كل الاتجاهات . فكرت أولاً في زوجها وفي لطفه المتزايد نحوها مما خفف الكثير من نفورها المشتمر السابق . ثم وجدت نفسها فجأة تفكر في جويل وتساءل اذا كانت قد احبته حباً حقيقياً ، فهي عجزت منذ فترة طويلة عن استذكار ملامح وجهه الوسيم بوضوح . ثم ان ثقتها الذاتية المتنامية واحساسها الجديد بأنها فرد له حقوقه وليست مجرد دمية يجرها الآخرون على هواهم ، جعلها الآن تنقم على جويل لاعتقاده بأنها خانت حبه عن تعمد وكان يجب ان يتأكد ، من خلال معرفته الوثيقة بطباعها المحافظة الحرجولة ، انها لا يمكن ان تذهب مع رجل غريب وتحتك معه طوعاً في أي مكان .

ثم فتحت قناة جديدة لافكارها في اتجاه والدها وديورا . هما أيضاً كان يجب ان يعرفا تماماً بأنها لا يمكن ان تقدم على عمل كهذا . الآن اندرست مبلغ تفكيرهما الضيق . وعلى الرغم من حبها العميق والمثمر لهما ، الا انها دانتها أيضاً ، ليس فقط بسبب عدم ثقتها بهما واستعدادهما لتصديق اسوأ الأمور عنها بل أيضاً ، بسبب تربيتها الصارمة لها والتي حالت دون اكتسابها شخصية قوية مميزة . لكن لسبب غريب لم تقدر ان تحقد عليهما من ناحية ارغامها على الزواج من خوان .

وفي الأخير عادت بكل افكارها الى زوجها ، وهذا ما رسم في عينيها حلماً

جبيلاً وعلى شفيتها ابتسامة عذبة. لكن ظهور المرأة العجوز المزعج سرعان ما محا الخلم والبسمة معاً. وسألته قبل ان تتمكن لوييتا من الكلام:
- ماذا تريدان؟

- تعلمين سبب مجيئي يا سنيورا. هل اتخذت قرارك؟

نظرت اليها روكسان باستغلاء وسألت بجفاف:

- بأي شأن يا لوييتا؟ تكلمي بسرعة ثم انصرفي من هنا.

فتوهجت عينا العجوز وبدا الشر في عمقها الاسود. قالت:

- اظهري بعض الاهتمام يا سنيورا، فانت على شفا كارثة.

تهللت روكسان بفروغ صبر وبصوت مسمع، فقلصت العجوز يديها البارزتي العظام واردفت وهي تلصقها بصدرها:

- هل ساضطر الى اخبار الدون خوان بعلاقتك السرية؟

- لا احسبي انهم ما تفصدين يا لوييتا. هل لك ان تشرحي مقصدك بكلمات أوضح؟

- ها! ها! انك تتعالين علي، اليس كذلك؟ هل تعلمت من الدون خوان ان...
- هل لك ان تشيرني اليه كزوجي؟

- مستحيل! لا بد انك لاحظت حذفي لهذه الصفة التي تريدان اسياغها عليه؟ لن يكون زوجك ابداً! انه زوج مارتا فحسب!

- انت مجنونة يا لوييتا. سوف اخبر زوجي انك تستحقين الطرد.

ما كان في نية روكسان ان تفعل شيئاً من هذا، لأن شجاعته لا ترقى الى هذا المستوى ولا يمكن ابداً ان ترتقيه، فمهما بلغ مقدار الدلال الذي شرع

زوجها يبدية لها فسوف يوقفها عند حدود اصدار اوامرها اليه.

وجعرت لوييتا قائلة:

- يا... سوف تندمين على تعني بالجنون! انا لست مجنونة بل اكثر تعقلاً منك!

ثم اقتربت منها وحنّت رأسها حتى كاد وجهها الشرير المغضن يلامس وجه سيدتها واردفت تقول:

- وهل تحسبين ان الدون خوان سيطردي؟ انا الوحيدة من بين سائر الناس التي ما زالت تربطه بحييتنا المشتركة مارتا؟

نهضت روكسان من مقعدها ونسارت الى باب الكشك حيث فتحت صدرها للهواء النقي وعبت منه عدة انفاس عميقة ثم انتحلت جانباً وقالت لها:

- يمكنك الآن ان تنصرفي.

- ليس قبل ان استعد للانصراف. لقد امهلتك امسوعين طويلين لتفكري وتعطي قرارك. والآن اريد جوابك، هل سترحلين ام اطلع

الدون خوان على المعلومات التي في خوزي؟

- هل خطر لك ان زوجي سيطلب معرفة الطريقة التي حصلت بها على معلوماتك؟ هل انت مستعدة للاقرار بانك تلاحقيني وتتجسسين علي؟

توقفت قليلاً ثم تابعت وهي تقلد صوت زوجها الهادي المنخفض والذي كان في نظرها اكثر ارباباً من اي نبرة اخرى:

- وهل انت مستعدة يا لوييتا لاخباره انك استرقت السمع من خلف باب غرفة نومنا؟

تراجعت المرأة خطوة الى الوراء وشحب وجهها حتى حاكى الزعفران.

ثم جعرت وشقتها تنقلصان على لثتها:

- انتظنين ان لديك سلاحاً ضدي؟ لهذا السبب لست خائفة؟

وفكرت روكسان، لا ريب ان المرأة مجنونة تماماً. ونساءلت لماذا لم يكتشف خوان هذه الحقيقة لغاية الآن... لكنها بالطبع ذكية كمسائر الناس

المجانين، فعندما تتحدث مع خوان تنقص امامه شخصية اخرى تختلف عن هذه كل الاختلاف... اجابته:

- البريء لا يخاف وبراءتي هي سبب رباطة جأشي. ان زوجي سيصدقني عندما اخبره بانني لم ارتكب اي خطأ احاسب عليه...

- اليس من الخطأ ان تذهبي مع رجل آخر وتزعي معظم ثيابك وكأنك لا ترتدين شيئاً على الاطلاق؟

- من اين جئت بهذه المعلومات؟

- انت لست ذكية كما تظنين يا سنيورا! فلقد تركت تلك القطعة الصغيرة من القماش في الحمام لكي تجف. وانا رأيتها بأم عيني هناك.

ابتلعت روكسان ريقها بصعوبة اذ احست بكثرة خوف صغيرة تتكرم في حلقها على الرغم من مظهرها الخارجي الوائق. ولما استطاعت الكلام

- هل ستقرين بهذا عندما يستجوبك زوجي؟

- لي الحق ان ادخل حمامك يا سيورا... سأقول له اني كنت اقوم بتنظيفه.

- جواب منطقي بالنسبة الى الحمام، لكنك لا تملكين اجوبة منطقية لأي شيء آخر. ان زوجي سيطردك فوراً اذا جرؤت على اعطائه أية معلومات حصلت عليها بواسطة التجسس.

وهنا بدا الانزمام واضحاً على المرأة العجوز ولاذت بالصمت لفترة طويلة وهي تقلب المشكلة في ذهنها، استنتجت روكسان انها تحاول ايجاد شيء تقوله كي تسحب السجادة من تحت قدمي الفتاة التي تكرهها اشد الكره. لكن لوييتا اخفقت في مسعاها الفكري، وسر روكسان جداً، وادهشها بدرجة اقل، ان ترى لوييتا تخرج من الكشك وتجر قدميها مبتعدة عن الحديقة والى جهة البيت الخلفية.

اخيراً حققت انتصاراً عليها! انتشت روكسان وسرى الفرح في عروقها ليضع دقائق لكنها سرعان ما افاقت على الواقع عندما واجهتها حقيقة ان هذا الانتصار لا يعدو كونه زيج جولة وليس انتصاراً نهائياً بأي حال، فلويتا ذات العقل الماكر واللامتوازن لا بد ان تتوصل الى طريقة ما للتغلب على هذه العقبة. وعندما تنجح في ايجاد وسيلة، ستسهي هذه الفترة المؤقتة من الراحة. لقد تكلمت روكسان بثقة واكدت للعجوز ان زوجها سيصدق براءتها، لكنها في اعماقها تشك الى حد كبير في صحة هذا الكلام... لا ريب ان خوان بدأ يتغير تدريجاً اذ اصبح اقل ارباباً، واقل ميلاً الى التملك والى فرض مطالب معينة ضمن علاقتها الحميمة. كذلك اكتسب رقة معينة جعلت روكسان تعترف ولو باستغراب بانها تأثرت كثيراً برقته هذه ويفهمه لمشاعرها الحساسة، والى حد لم يخف معه فقط اشتزازها السابق منه، بل بدأت ايضاً ذكرى قسوته الاولى تمحي من ذهنها، وفي الواقع صارت توجد مبررات لتصرفاته انطلاقاً من تفهمها الجديد لطبيعة زوجها الافضل.

لقد اكدت لنفسها في ما مضى ان زوجها قانون بحد ذاته بسبب مزاجيته الشديدة ونزعاته العنيفة البربرية التي ورثها عن اجداده. لكن بالإضافة الى

هذه الناحية المغرورة والمسيطر من شخصيته هناك ناحية اخرى مختلفة تماماً. وراحت روكسان تستعرض الحوادث البسيطة التي تؤكد ذلك والتي بدأت تكثر في الآونة الأخيرة. فهو يقدر ان يكون رقيقاً جداً، وكم من المرات اظهر قلقاً عليها، بالإضافة الى تلك الومضات المتباعدة من التواضع التي استطاعت ان تلمحها في تصرفاته. ولولا معرفتها الاكيدة لحبه العميق لما رأت الراحلة، لاستطاعت في تلك اللحظات ان تصدق تقريباً انه كان يناديها منحه بعض العاطفة.

اجل، لا ريب اطلاقاً في صحة تغيره، لكن روكسان لا تأمن كلياً لهذا التغير وتحسب حساباً لظهور طبيعته الوحشية مجدداً اذا عرف بذهاها مع نوم الى اكابولكو. وسيزداد غضبه اشتعلاً عندما يتذكر بانها رفضت الذهاب معه هو عندما عرض عليها مرافقته ليقضيا النهار فيها.

كانت ما تزال واقفة عند باب الكشك الصيفي، ونظرت عبر الحديقة الى ما وراء النافورة حين استرعت انتباهها حركة هناك. رأت خوان يسير بمفرده ثم يتوقف ليتأمل الزهور. كم بدا وحيداً... رجل طويل عريض المنكبين وواثق، انما انسان وحيد! وفي تخيلات رأت الفتاة الصغيرة الرائعة تركض في ارجاء الحديقة، كما وصفتها لوييتا، ورأت خوان، الشاب السعيد آنذاك، يلاحقها راكضاً ويمسك بها... كانا يلهمان كولدين صغيرين، قالت لوييتا، واستطاعت روكسان، الرومانسية بطبيعتها بالرغم من خجلها الفطري، ان تتصور الصغيرين المرحين اللاهين يحضنان بعضهما بعضاً... عادت افكارها الى الواقع وابتلعت كتلة أسى صغيرة سدت حلقها. يا لها من قصة حزينة، كررت القول لنفسها، لكنها احست فجأة بعزوف عن التفكير فيها والتوقف عندها. لا تريد ان تتخيل فتاة اخرى بين ذراعي خوان. كانت تحس المأ غريباً من فكرة حبها العميق لبعضها البعض، وتشعر بغيرة من لحظاتها الحميمة السالفة ومن ضحكاتها الجذلى التي كانت ترن كالجرس في ارجاء حدائق المزرعة.

بدأت تسير بقلق عائدة الى البيت، فأثار تحركها انباه خوان الذي ادار رأسه صوبها. وعلى الرغم من بعد المسافة رآته يتسم لها ابتسامة تلقائية سريعة كما لو انه لم يستطع لجم فرحه برؤيتها.

تقدم صوبها وقال عندما وقف الى جانبها:

- كنت اتساءل الى اين مضيت. اني افكر في اقامة بركة للسياحة...
كان يجب ان اقيمها من قبل انما لم اجد ضرورة لذلك...
توقف فجأة وقطب حاجبيه كما لو انه يؤنب نفسه على عدم لياقته، وتابع
بسرعة:

- انا وانت منجد فائدة كبيرة في استعمال بركة كهذه يا روكسان. تعالي
وساعديني في اختيار المكان المناسب لها.
تملكتها سعادة غريبة لجرد انه طلب اليها ذلك، فسألته وكأنها لا
تصدق:

- انا؟ اتريدني حقاً ان اساعدك؟

فتأبط ذراعها بلطف واجاب:

- بالطبع اريدك ان تفعلني. سأريك تلك البقعة هناك كي تعطيني رأيك
في صلاحيتها.

تسللت يده واحتوت يدها، ولأول مرة منذ زواجها شعرت بذلك
الاحساس اللذيذ الذي انتابها ليلة رقص معها في تلك الحفلة اليمينة.
ووقتها كان هناك خوف مجهول وغريب يخالط بهجتها لكنها اليوم لم تحسه.
قادها خوان الى فسحة واسعة مزروعة بالعشب اللين المقلم كساط
اخضر، تحدها من كل الجهات تقريباً اشجار باسقة وشجيرات في منتهى
الروعة. فتهفت جدلي:

- هذا المكان فسحة غاية اسطورية يا خوان! قد يبدو غريباً جداً بالفعل
اني فكرت فيه من قبل كمكان مثالي لاقامة حوض سياحة.

- فكرت في ذلك؟ اجل، انه لامر غريب فعلاً.

شرد مع افكاره هنيهة فقالت روكسان في نفسها، اذا حصلنا على حوض
سياحة فسوف يكون شيئاً لم نره ماراً ابداً، وسيكون جزءاً مني وليس منها.
تأملات غريبة تصدر عن زوجة كانت تعاهد نفسها دائماً على ان تكره
زوجها والا تقترب ابداً من حدود الغفران...

وقالت لزوجها بحماسة:

- انه مظل ومحمي تماماً، وخاص جداً.

- نستطيع ان نزرع على جوانب الحوض اشجاراً قريبة ومن النوع المتعدد
الذي تنحني اغصانه حتى مياه الحوض.

- ليس على كل الجوانب لأن معظمها مشجر بما فيه الكفاية.

- معك حق. ماذا تقترحين إذن؟

شعرت باصابعه تضغط برفق على ظاهر يدها فرفعت بصرها الى وجهه
وشفتها تفتران عن ابتسامة عذبة. حدى اليها بعينين ساكتين وهو يراقب
نظراتها ثم يادها ابتسامتها وقال:

- لا ادري اذا كانت الاشجار تبدو جميلة على زوايا الحوض... لا،
ليس على كل زاوية وحيث لا تعطي الرونق المطلوب. لا نريد نوعاً من
التشجير المصطنع، اليس كذلك؟

هز رأسه وقال:

- كنت افكر بحوض على شكل كلية...

- بالطبع هذا هو الشكل الاصح. ما اضيق خيالي الهندسي! انا كنت
افكر بحوض مستطيل. لكن اذا اقمنا واحداً على شكل كلية سيعطينا مجالاً
اوسع لزرع الاشجار.

فازداد خوان حماسة ومضى يقترح قائلاً:

- وماذا عن الصخريات ووضع اشياء اخرى لتزين منعطفات حافة
الحوض مثلاً؟

- سيكون ذلك رائعاً! كذلك يمكننا استحداث شلالات صغيرة.

- اجل، مياه تجري على الصخور.

- كم سيبدو كل شيء جميلاً!

ثم اجالت بصرها في ارجاء البقعة المختارة والتي يشتمل تشجيرها الحالي
على اشجار الفرانجيباني ذات البراعم العطرة بلون الكريم، وشجر
البونسيانة ذي الزهور البرتقالية، والبرغونيلية البشجية الفاتحة. ثم
شجيرات دفل زهرية تشكل سياجات منخفضة، يخالطها ياسمين اصفر
لكسر النمط الواحد ولتنويع الألوان. وفي احد الجوانب الطويلة، تنهادى
ورود وقرنفل وخشخاش احمر فاقع تتوزع الوانها في رشات رائعة، وعلى
مطلي كل هذه المشاهد الساحرة البهيجة اشجار باسقة تشمل نخيلاً عالياً
وارفاً.

وسألت روكسان كاسرة الصمت الذي ساد بعمق بينهما:

- متى نشرع في اقامة الحوض؟

- فوراً . سأتى بمتعهد في الحال .

- وكم سيستغرق بناؤه ونجهيزه ؟

بدا ملتذاً بتخاذ صبرها اذ برقت عيناه السودان وهو يجيبها :

- لا اعرف متى ينتهي العمل بالضبط يا روكسان . علينا ان نحثهم على

سرعة التنفيذ ، اليس كذلك ؟

انتابها خجل مفاجيء بسبب جمعية المشهد ونظرات زوجها الحاتية

وصوته الهامس تقريبا ، فاكثفت بإجابة سريعة كجواب على سؤاله

وأشاحت وجهها عنه وهي عاجزة عن اعتقال تلك الشرارة من النور التي

ظهرت مرة واحدة من قبل ثم ما لبثت ان خبت متهربة منها . لكن يد

زوجها الحاتية احتوت ذقنها وأعل عنقها وأرغمعتها على رفع رأسها

فاضطرت الى النظر الى وجهه . وسأله متلعثمة لمجرد ان تقول شيئا :

- ما ... ماذا هناك ؟

- انت في منتهى الجمال . هذا الشعر ... ذو الخصلات النحاسية

اللامعة ... وهاتان العينان اللتان يتغير لونهما ...

اجتاحها اشمزاز مفاجيء سرى في كيانها كله وقفزت بعيداً لتجنب أي

احتكاك به وهضت :

- اوه ! اني اكرهك !

تجمعت الدموع بسرعة فحجبت بصرها ... لقد ولت سعادتها هاربة

لدى سماعها كلماته التي نطقها وكأنه يخاطب بها نفسه ، والتي ذكرتها الى

حد كبير بتلك التي قالها لها في مناسبة قديمة ... عندما رقص معها وامتدح

لون شعرها النحاسي وعينيها البنفسجيتين وبشرة وجهها فأدركت آنذاك

انه كان يلوح الى شبهها الشديد بخطيئته المتوقعة ...

وكررت بانفعال واختناق :

- اني اكرهك وسوف اكرهك دائماً .

ويدون أن تتوقف لتلاحظ رد فعله المذهول تجاه انفجارها ، استدارت

وركضت عبر الممرج واخضت عن نظره بالتدريج بعدما تركت المكان الذي

كانت منذ دقائق فقط تصفه فرحة بأنه قطعة غابية اسطورية !

وحالما أغلقت على نفسها باب غرفة النوم سمعت لدموعها بأن تتساقط

بغزارة ... بعد مشهد حميم كذاك ، وبعد ان خططا معاً لاقامة حوض

للسباحة ... الشيء الوحيد في طول الأملاك وعرضها الذي لن يكون

مرتبطاً بمارتا بأي شكل من الأشكال ... بعد هذا كله ، اتاح لنفسه ان

يضيع في الماضي وان يعاود رؤية حبيبته القديمة من خلال روكسان ويتذكر

لون شعرها وجانها وسحر عينيها ... هي ، زوجته ، لم تعد في نظره تلك

الفتاة التي اختطفها من وطنها ومن احبائها ، بل تمثل مارتا ، الحية الغالية

على قلبه .

شعرت روكسان بغثيان شديد . ما هذه العاطفة القوية المريضة التي

تصر على احياء روح فتاة معينة في جسم فتاة ثانية ؟ ان خوان رجل

شرير ... قدر في الفعل والتفكير ويلتذ بتعذيب الآخرين . انه يستطيع ،

بلا وازع من ضمير ، ان يعيش معها هي متظاهراً بأن مارتا هي الزوجة

التي يحضنها بين ذراعيه ... اما حديثه عن حوض السباحة ، فقد ادركت

روكسان الآن انه كان قد خطط له مع مارتا ، فيها احتت هي سعادة وفرحاً

غامرين لاعتقادها انها كانت المرأة الوحيدة التي تملأ افكاره وذلك باقناع

نفسها بان هذا هو الشيء الوحيد الذي سيكون منفصلاً تماماً عن حبه

القديم ... اجل ، لقد خطط له مع مارتا ، وكان ينوي مراقبة انشائه

معها ، ويحلم بأن يسبح فيه معها في النهاية ... وهضت روكسان لنفسها

ملئحة : « كلا ، لن يفعل ذلك الا اذا سح فيه مع شبحها ! اما انا ، فلن

استعمل الحوض ابداً ... ابداً ! » وهكذا ، ومن دون ان تبذل جهداً

واعياً ، تملكها شجاعة وقوة عظيمنتان . من اليوم فصاعداً لن تخضع له

ولن تشاركه في تظاهره العاطفي المجنون ! لن تسمح له بالاقتراب منها

ابداً ، وقريباً جداً ستركه وترحل .

هذا القرار الأخير ركزت عليه كل افكارها . كان امامها خياران

للهرب . اما بواسطة توم أو بواسطة لوييتا . لكنها تشمئز من اي تعامل مع

لوييتا الشريرة ، قررت للحظة ، انما تذكرت في اللحظة التالية قول المرأة

بانها تستطيع مساعدتها على الخروج من البلاد ، في حين لا يقدر توم ان

يفعل ذلك ابداً دون ان يكون جواز سفرها في حوزتها . وقررت قبل كل

شيء ان تحاول الحصول عليه بطريقة ما ... لا بد انه موجود في غرفة نوم

خوان أو في مكتبه . اذن حالما يخرج من البيت ، ستبحث عن جواز

السفر ، لكن عليها ان تكون حذرة تماماً من تمسك لوييتا المستمر .

وفجأة تقلصت عضلاتها وأرهفت سمعها ، ثم دخل عليها خوان دون ان يترك على الباب . ووقف يحلق فيها بخليط من الحيرة والغضب . استفسر بحزم :

- روكسان ، ما الذي قصده من انفجارك السخيف ذاك ؟ اجابته بصوت مخنق :

- انت تعرف السبب جيداً ولا اريد التحدث معك بشأنه . فقطب جبينه بحيرة شديدة وكرر قائلاً :

- اعرف السبب ؟ ابي واثق من جهل له يا روكسان .

تغير لون عينيها النفسجي وهي تشمله بنظرات احتقار وقالت :

- اهناك ابي حاجة الى التمثيل ؟

ثم عجزت عن مواجهة نظراته الثاقبة فأشاحت عنه وتابعت :

- انت تدرك لماذا تزوجتني ، وذلك تفسير كاف لانفجاري كما تسميه . وأكملت بكبرياء هادئة :

- والآن ، هل لك ان تتركني وشأني ؟

اجابها بالصمت فتصورت غضباً يرتسم في عينيها لكنها لم تتحرك في اتجاهه لتؤكد من غضبه .

ولما اجابها كان صوته يعكس حيرته المستمرة :

- السبب الذي تزوجتك من اجله ليس له اية علاقة بذلك الاستعراض الذي جرى في الحديقة . لا اظن ابي افهم قصيدك يا روكسان .

فهتفت غاضبة :

- كف عن التمثيل ! انك تضع الوقت ليس الا ! قلت لك ابي لا اريد

التحدث في الموضوع .

قال يأمرها بلطف :

- انظري الي .

- لن افعل ! لقد طلبت اليك ان تتركني !

كانت على وشك اليكاء . اما بالرغم من تعاستها احست في قناعة داخلية بانها استطاعت التمسك بقوتها مع انها استغربت ذلك كثيراً . فلو انها واجهت الموقف نفسه قبل بضعة اسابيع لما تهورت الى هذا الحد

وجرؤت على مخاطبته بهذه اللهجة الصارمة .

وارعد فيها ثانية :

- انظري الي !

لكنه لم يهلهلها حتى تطيعه بل قبض على ذراعيها بخشونة ولوى جسمها مرغماً اياها على مواجهته قائلاً :

- اصر على ان اعرف حقيقة ما يجري !

فصوّت اليه نظرة احتقار طويلة ، انزلت من وجهه الى قدميه وصعدتها ثانية الى وجهه . ألحبت تصرفها غضبه فهزها بعنف من ذراعيها ، وهضت هي :

- اتركني وشأني ! واخرج من هنا .

- انظر ديني ؟

وهنا ثارت ثائره وغل يدها حتى تهاوى وجهها باكياً ، وصرخ عتداً :

- اياك ومخاطبتي بهذه اللهجة الأمرة ! لن اترك هذه الغرفة الا عندما تعطيني تفسيراً اقنع به !

كان وجهه مريداً من شدة الغضب فتذكرت انه يمثل اسلافاً همجين ويلقب بالنسر الأسود . كانت تقاسم وجهه الشبيهة بوجه نسر تبرزها التفضينات العميقة في جبينه من جراء ثورته ، وشفتاه النحيلتان المتقلصتان حول لثته وأسنانه والشریان النابض بجنون في خده .

بدأت شجاعته تنحسر انما للحظة واحدة فقط اذ صممت على الاستمرار في الصمود ، لأنها اذا اتاحت له الآن ان يجرفها بقوته فكيف ستقوى على رفضه عندما يأتي في المساء الى غرفتها ؟ وهي مصممة على رفضه ولن تتزعزع عن قسمها بأن تضع حداً نهائياً لتظاهراته العاطفية المريضة . . . لكن كيف تقصر له الآن سبب تصرفها السابق في الحديقة ؟ وما انها لم تشأ ان تأتي على ذكر خطيئته المتوفاة ، قالت اخيراً بعدما استطاعت تحرير ذراعيها من قبضته :

- ان كان لا بد لك ان تعرف السبب ، فاعلم ابي عدت اشعر بكل الاشتزاز القديم الذي كنت اكنه لك ، فكلامك حول جال شعري وعيني ذكرني بكلام مماثل سمعت منك في اول لقاء لنا ، وذكرني بكل ما فعلته معي .

وبرغم شحوبها اكملت بصوت هادئ أتعشها :

- اني اكرهك يا خوان . والآن ، ارجوك ان تنصرف .
تقلص وجهه الأسمر الداكن ، وعاد يقبض على ذراعيها بقسوة ،
فصرخت هذه المرة من الألم وصاح فيها متها :
- انت تكذبين ! اريد معرفة الحقيقة !
شدد قبضته على ذراعيها بقسوة اكبر ففاضت عينها بالدموع وقالت
بصوت مرتجف :

- انها الحقيقة ! اقسم اني ما اخبرتك سوى الحقيقة .
وبالطبع لم تكذب عليه لكنها اخفت عنه جزءاً من الحقيقة . تفحص
وجهها بحدقتين ضيقتين وقابلت نظراته المخيفة بطرف جامد ، فقال بقدر
اكبر من الهدوء :

- ارى انك ذكرت الحقيقة .
لكنه دفعها بعيداً عنه بعنف شديد جعلها تتعثر الى الوراء وكادت تسقط
ارضاً لو لم يسارع الى الامساك بها مجدداً . ثم جذبها اليه معاقباً ايهاها على
كلامها ، وبعد لحظة قال بصوت متخفص خرج كثيراً من حلقه :

- تقولين انك تعرفين مني ؟ اذن يبدو اننا عدنا الى حيث بدأنا .
لم توهم نفسها بانه ربما كان يقصد من كلامه شيئاً آخر ايجابياً ، بل كانت
لديها قناعة تامة بأن كل الرقة التي لمستها منه مؤخرأً وكل الاهتمامات
الصغيرة ، والنظرات الغلظة على راحتها ، لم تعد من نصيبها من اليوم
فصاعداً . . . ولماذا تتحسر أو تهتم ما دامت قد عازمت على تركه ؟

ولفترة طويلة ، حدثت في الباب المغلق بعد ان عبره الى الرواق
بخطوات ثابتة وقوية على الرغم من الثورة المستمرة في صدره . . . ثم
انجبت عيناها الى الباب الآخر الفاصل بين غرفتيها ووجدت قدميها
تسوقانها صوبه . هل جواز سفرها في مكان ما هناك ؟ من الأكيد ان زوجها
لن يصعد الآن الى غرفته وعلى الأقل لفترة معينة . دفعت الباب امامها
ودخلت غرفته . . . الدرج الذي فتحته مرة من قبل وجدته الآن فارغاً الا
من حلقات لجمع اكمام القمصان ومشابك لربطات العنق . . .

وفكرت ، لا بد ان خوان اخبر من صور مارتا الفوتوغرافية . . . وأحست
باختناق حين تخيلته يمدق في تلك الصور . . . يمدق ويمدق لوقت
طويل . فتحت عدداً من الأدراج الأخرى لكنها كانت تحتوي ثياباً

فحصب . . . خرج آخر وجدت فيه عدة دفاتر مذكرات فتجاهلتهما وأقبلت
الدولاب . تنهدت ونظرت الى ما حولها . لم تبق الا الخزانة ولم تتصور ان
يكون جواز سفرها محفوظاً فيها ، ومع ذلك فتحت بابها وبحثت في
داخلها . ثياب كثيرة معلقة ورغوف عديدة ملأى بستران صوفية وملابس
داخلية مطوية بعناية فوق بعضها بعضاً . مررت يدها تحت هذه الثياب
وتنهدت بخفية . اذن يبدو ان الجواز محفوظ في غرفة مكتبه ، وليس من
السهل دخولها لأنها في الطابق الأرضي ولوبيتنا ستكون هناك فلا سبل الى
ذلك .

وفيا هي تقفل باب الخزانة ، جذبت بصرها رزمة ملقاة على ارضها في
احدى الزوايا . حدثت اليها طويلاً وقد سحرها الورق الجميل الملفوفة به
والزهرة التي تزينها والمصنوعة من شرائط زرقاء وبيضاء ووردية . انحنت
عليها تلمسها فاذا بالذكرى تضرعها وتعيد الى ذهنها شكل الرزمة التي كان
زوجها يحملها يوم ذهب وياها ومرغربنا الى مدينة مكسيكو . الحجم هو
نفسه لكن العلبة ملفوفة الآن كما تلف الهدايا ، بورق انيق منعق وربطة
زاهية . اكيد انها نفس الرزمة وأكد انها هدية لها بمناسبة عيد ميلادها . . .
سارعت الى اقفال باب الخزانة وهي ترتعد وعادت فوراً الى غرفتها . من
الواضح انه كان ينوي اهدائها اليها . . . وكان سيخيل نفسه يقدم هدية
الى حبيته القديمة .

تلك الليلة ، لما دخل غرفتها متغظراً ، واجهته وهي ترتدي كامل
ثيابها وأخبرته انه لا يستطيع البقاء . أعقب كلماتها المأذنة صمت مذهول
من جانب ، فيما بدأت عيناها السوداوان تنقدان بنور خفيف كان كضياءً بالقاء
الرعب في قلبها قبل ساعات معدودة ، لكنها تحولت الآن الى انسان آخر
يتحلى بشجاعة هي وليدة معرفتها بانها على صواب . فعلاقتها كانت ملوثة
فضلاً عن انها كانت مصدر عذاب لها برغم كونها مبعث بهجة
لزوجها . . . بهجة لا تطيق التذكير فيها لأنها من النوع الذي لا يروق الا
لشخص شرير جداً .

وأخيراً سألتها خوان بصوت لطيف :
- ماذا قلت يا روكسان ؟ لا احبني سمعتك بطريقة صحيحة .
يا لغروره الرهيب بالرغم من انه مجرد غريب داكن اللون ! اجتاحتها

غضب وامتعاض ألها كيائها في العمق فأضافا وقوداً الى شجاعتها . قالت بصوت متعال :

- ما سمعته كان صحيحاً ، فأنا لست مستعدة لتحمل المزيد من أشياء تفرطني ، كما لا انوي ان اظل مجرد دمية متحركة .

دمية على شاكلة مارتا ، كادت تضيف ، لكنها استطاعت كتم الكلمات في اللحظة الأخيرة ، ونابت : .

- لقد ارعيت على الزواج لأنني كنت ضعيفة آنذاك ، انما لم اعد اليوم كذلك . ان حياتي ملكي وليست ملكك لتحركها بأصابعك على هواك .

كانت عينها البنفسجيتان تبدلان لونهما وتكشغان عن العاطفة القوية التي تملكها . كانت شاحبة الوجه انما رابطة الجاش تماماً . لكن في حال قرر ان يستعمل معها العنف فسوف تعجز عن مقاومته انما ستكون هي المنتصرة معنوياً ، ولن يحصل على ذرة واحدة من الاكتفاء من خلال انتصاره عليها . . . قال :

- تبدين وكأنك تستمتعين باستعمال كلمة اشعزاز .

بدا صوته ذارئة سطحية عفوية ، لكن طياته حملت شيئاً من وحشيته . فردت بهدوء :

- انها كلمة تناسب مشاعري تجاهك .

بدا يتقدم صوبها فانكششت منه غريزياً وهي تحس ضربات قلبها تعف وتزايده . مدت يدها امامها لا شعورياً كما لو انها تبغي دواء ضربة مستهال عليها ، فتوقف حيث هو وابتلع ريقه بطريقة غريبة . لكن فمه التحيل التوى بقسوة وركز على وجهها عينين حارقتين . حدثت اليه بتعجب مشدود اذ شككت في ان ثمة صراعاً يتفاعل في كيانه . . . وبالتدريج ، وكأنه يؤكد شكها هذا ، اكتست عيناه نظرة حزينة مفكرة سرعان ما عمت معظم الحشونة عن صفحة وجهه ، وراح فمه يتحرك بغرابة كما لو بفعل عضلة متمردة فقد سيطرته عليها ، وهبطت يدها المتشنجتان الى جنبه ، ثم استدار دون ان يتنوه بكلمة اخرى ، ولم تفض لحظة حتى انغلق باب غرفة نومه وسمعت المزلاج يقفل بهدوء من الداخل .

ولفترة طويلة وقفت وركسان جامدة تراقب مقبض الباب وهي عاجزة عن التصديق بانه كان هو الذي انسحب من المعركة . . . لقد توقعت مئة

بالثة ان ينقض عليها بتلك السطوة التي يتميز بها العزاة المنتصرون ، انما بدلاً من ذلك انسحب بغاية الهدوء وتركها وشأنها ، ومع ذلك ، كانت متأكدة من عزمه المبدئي على فرض نفسه عليها . . . اذن ما الذي جعله يقدم على هذا التصرف الذي لا يمكن وصفه الا بانه استسلام غير مشروط ؟

كل ذلك اثار فيها حيرة شديدة . لكن الفكرة الرئيسية التي طغت على ذهنها هي انه تركها في سلام . . . وانتابها شعور واثق من انه لن يعود اليها هذه الليلة ولا في اي وقت آخر في المستقبل .

ارتدت قميص نومها ببطء ، لكن عندما أوت الى الفراش انخفضت في استجلاب النوم الى جسمها المرهق اذ كل ما استطاعت ان تراه ، وهي تستلقي في الظلام ، هو جسم زوجها الراكع عندما تلصصت عليه من خلال باب الهيكل . . . جسم خوان الراكع في تواضع امام ربه ، ورأسه المحني في صلاة خاشعة .

- لست متأكدة الآن من صوابية تركه ؟
 ظلت صامئة بعض الوقت ثم اجابته بصدق :
 - لقد غيرت رأيي يا نوم . لا ارجب الآن مطلقاً في الانفصال عنه .
 وهذا الاقرار سطعت الحقيقة المذهلة امام عينها . . . انها واقعة في
 حب زوجها الغامض الأسمر ، الرجل الذي يطلقون عليه اسم النسر
 الأسود .

ولما استلقت ليلاً على فراشها ، سألت نفسها : كيف ومتى وقعت في
 حبه ، وهي تدرك بشكل ما انها تحطت سنوات مراهقتها . كانت هناك
 منامية أو اثنتان ، تسرب فيها الى وعيها بصيص من النور ، انطلق من
 مكان ما في ثنايا ذهنها العميقة لكنها اخفت وقتئذ في اندراك معناه . وحتى
 لو انها دعت ذلك البصيص من الحقيقة لكانت نبذته على الفور كشيء
 مخيف للغاية . . . أفلم تعاهد نفسها على ان تكره زوجها طيلة حياتها ؟
 اما الآن فكل ما فعله معها يبدو باهتاً وبلا اهمية تذكر ، بالرغم من انها لم
 تنس السبب الأساسي واللاعاطفي لزواجها منه . لكنها في ضوء هذه
 الحالة الجديدة الصادرة مع ذاتها ، تتعلق بالأمل بطريقة يائسة وذلك
 انطلاقاً من تصميمها على ايجاد وسيلة تجعل زوجها ينس حبيته الأولى .
 لكن ، اليس اكيداً انها تحضن املاً عسير التحقيق ؟ فخوان احب مارنا
 طوال احد عشر عاماً تقريباً ، وقد تزوجها هي ، شبيبته ، ليعيش مع
 مارنا في الخيال من جديد . اذن اي أمل لديها في امتلاك قلبه بلا منازع ولا
 شريك ؟

«سأحاول بكل ما لدي من قوة وتصميم» .
 قالت لنفسها وهي تعي شجاعتها وثقتها الذاتية اللتين اكتسبتهما فقط
 نتيجة لاحتكاكها مع خوان في الأسابيع الأخيرة ، وكان له الفضل الأكبر في
 احداث التقارب بينها . . . وتابعت تحدث نفسها قائلة :
 «وعندما يعطيني هديتي اليوم سأقبلها منه بلياقة وامتنان ، ولن اقلدها
 في وجهه كما كنت انوي أن افعل . . . اجل . سأحاول ان لا اتذكر بانه
 يقدمها في الحقيقة الى مارنا . . . لكني سأقبل الهدية كما لو انها لي خصيصاً
 وسأقنع نفسي بانه اختارها لي انا ولم يختارها لها» .
 وهنا أحست ان الثقلاً عديدة تنزاح عن قلبها فنهضت منشروحة

٨ - بانتظار الفجر

بعد مرور اسبوع ، أطل صباح عيد ميلادها الحادي والعشرين ولم تكن
 قد فعلت بعد أي شيء في صدد خطة الحرب . ظلت ترى خوان بعين
 خيالها ولم تقدر أن تقرن تصرفه المؤمن هذا بالصورة السوداء التي رسمتها
 لشخصيته . هل هناك شيء اشكل عليها فهمه بالنسبة الى الوضع ككل ؟
 وهل ستقدر ان تتوصل الى هذا الشيء اذا بقيت في المزرعة ؟ بما ان خوان
 توقف الآن كلياً عن زيارة غرفة نومها فهي تنعم براحة نسبية وبالتالي ليست
 هناك حاجة ملحة الى تركه في الوقت الحاضر . . . لم يخطر لها ابداً ، في
 هذه المرحلة على الأقل ، ان هناك دافعاً خاصاً يجنبها على تأجيل الحرب .
 لقد زارت نوم في خلال الاسبوع الماضي وأخبرها ان فيليس كتبت اليه
 أخيراً . لم تذكر موعداً للقاء لكن نوم كان يادي التفاؤل ، وعندها فقط
 أدركت روكسان مدى حبه العميق للفتاة .
 وسألها نوم آنذاك بلهفة :

- ما رأيك في رسالتها ؟ اقصد ، هل اخطىء اذا بنيت عليها أملاً
 للمستقبل ؟

فردت عل الفور لتطمئن أفكاره القلقة :
 - انها بكل تأكيد مدعاة للأمل والتفاؤل . انا واثقة من وجود سبب
 قوي جعلها تقرر ان تكتب اليك .
 ثم استفسر نوم عن سير علاقتها بخوان . فاعتمدت جواباً متحفظاً
 بطبيعة الحال مما جعل نوم يتأملها بدقة محاولاً استشفاف الحقيقة ، فقال
 بصيغة سؤال انما كان في الواقع تذكيراً بحقيقة معينة :

واستحمت وارتدت ثيابها .

في غضون الاسبوع الثالث بالكاد تكلم احدهما مع الآخر ، وبدأت الهوة تتسع بينهما . لقد التزم غرفته الخاصة طوال الوقت ، ومع انها ما تزال تفضل هذا الوضع الانفصالي بالرغم من حبها الذي اكتشفته مؤخراً ، فقد تراءى لها لو انه جاء اليها ، لاستطاعت ، بسهولة اكبر ، ان تكثف محاولاتها لاستجلاب حبه ، ولصعب على زوجها مع الوقت ان يقاوم هذه المحاولات القوية من جانبها . أفليس اكيداً انها اذا اغدقت عليه حبها الصادق سوف يستجيب لمواطفها قليلاً ، ويوماً بعد يوم ؟

لما نزلت الى الطابق الأرضي ودخلت قاعة الطعام جاءتها لويس بعدة بطاقات معاينة على صينية فضية . لاحظت ان احدها كانت من ابوها وأخرى من ديبورا . البطاقة الثالثة من صديقتها كلير التي تذكرت عيد ميلادها ، ورابعة من مرغريتا ايضاً ، اما البطاقة الخامسة وغير المتوقعة فقد ارسلها جويل وكانت تحتوي بيتاً عادياً من الشعر والكلمات التالية ، « تمنياتي لك بالسعادة في عيد ميلادك ، جويل » .

قرأت الفحوى دون ان تشعر بأي حزن أو ترقق الى الشاب الذي احبه سابقاً ، ولماذا تشعر بشيء . وهي الآن تحب خوان اكثر من حبها لأي شخص آخر في العالم ؟ ولكن أين بطاقته ؟ لماذا لم يرسل اليها واحدة ؟ ووجدت نفسها تغص بريقها ألماً وخيبة لكنها سرعان ما انتهت الى انه سيرفق البطاقة على الأرجح بالهدية ، وهكذا راحت تنتظر نزوله الى قاعة الطعام وهي تعيد في ذهنها ما ستقوله له ، وكيف ستظر اليه كي تجعله يتخلى عن القسوة التي حلت به منذ تلك الليلة التي انتصرت عليه فيها برفضها له . . . قد يتمشيان بعد الافطار في الحديقة فتتهدى الفرصة وتقوده الى تلك البقعة الرائعة حيث قررا اقامة حوض السباحة ، الحوض الذي ما زال مشروعه محمد التنفيذ بالرغم من قرار خوان بأن يتصل بالمعهد على جناح السرعة . . . ومتى وصل البقعة ، يجب ان تحاول جهداً ان تنسى ما حصل سابقاً وتواصل ما انقطع من تخطيطها السعيد ، فتبدأ مجدداً من اللحظة التي سبقت تلفظه بتلك الكلمات المشؤومة وحيث غمرت كيائها تلك الموجة العاتية من الاستمزاز .

استدارت بسرعة حين دخل قاعة الطعام وأحست قلبها يقفز من

مكانه . . . أين الهدية ؟ لماذا لم يأت بها معه ؟ اكيد انه لم ينسها ؟ شعرت فجأة انها لن تحتل الصدفة اذا كان قد نسي ان اليوم هو عيد ميلادها وبعد كل الآمال الجميلة التي عقدت العزم على تحقيقها . وقال لها بتراته الباردة المعتادة واللامبالية :

- صباح الخير يا دوكسان . ارجو منك المعذرة ان كنت تأخرت . هل تركتك تنتظرين طويلاً ؟

فقد قلبها كل الفرح الذي عمره منذ برهة قصيرة ، وأجابت بصوت ذي رنة غريبة لا تمت اليها بأي صلة :

- صباح الخير يا خوان . لا ، انت لم . . . لم تدعني انتظر طويلاً . لماذا تقرب دموعها من عينيها الى هذا الحد ؟ ليس من المعقول بتاتاً ان تشعر بهذا القدر من الخيبة المرة ، ما دامت لا تستطيع ان تزعم ، حتى في الخيال ، انها قد فعلت مطلق شيء تستحق لقاءه ان يتذكر عيد ميلادها . الا انه يبدو غريباً جداً ان لا يتذكر فقط ان يتناع لها هدية ، بل ان يكلف نفسه ايضاً عناء لف الهدية بتلك الطريقة الجذابة جداً . . . وهذا التصرف من جانبه ادهشها الى اقصى الحدود لأن مهمة رقيقة كهذه لم تكن لتتوقع ابداً ان يقوم بها زوجها الصارم القاسي .

وكعادته دائماً قبيل تناولها الطعام ازاح خوان كرسيها الى خلف فجلست عليه وهي تشاور فكرها ، هل تغامر بالتلميح ان هذا اليوم خاص بالنسبة اليها ام تلوذ بالصمت ؟ وقررت ان لا تذكر له شيئاً . انه سيتذكر ذلك من تلقاء نفسه وفي وقت لاحق ، وأنذاك سيصبح بإمكانها ان تنفذ خطتها وذلك بأن تقبل الهدية بأسلوب ودود لطيف تعبر له من خلاله عن التفسير الذي طرأ على مشاعرها . لكن الساعات توالى بدون ان يقدم اليها الهدية ، ومع حلول العصر قطعت الأسل واضطرت الى الاعتراف بانه على الرغم من تحشمه مشقة شرائها فقد نسي موعد تقديمها .

لم تر له أثراً وقد اصبح عدم التفاتها عادياً منذ ان اتسعت الهوة بينهما . احست بالغم يطبق عليها من كل جانب فذهبت لتزور توم وجلست وياها في غرفة الخانوت الخلفية . قالت وهي تغتصب ابتسامة لطيفة :

- اشكرك على البطاقة . لقد اثلجت قلبي كثيراً .
- توقعت ان تسرك لكونك بعيداً جداً عن الوطن . هل تلقيت

هدايا جيلة ؟

فرطيت شفيتها وقالت بارتياك :

- لم ... لم اتلق اية هدية .

فعبس بجيا :

- ولا حتى واحدة ؟ ألم يقدم اليك زوجك شيئاً ؟

كان يمدق اليها مستغرباً فقالت عل الفور :

- لم يفعل لغاية الآن . اخن انه قد يهديني شيئاً في وقت لاحق .

وهنا فاضت شجونها فلم تشعر الا وهي تخفي وجهها بين يديها وتشرع

في البكاء ... قالت باختناق :

- انا ... آسفة .

- يا لك من مسكينة . لقد وقعت اذن في حب النسر الأسود . لماذا لم

يقدم لك هدية ؟

فتهاوت دموعها وردت متحبة ويدون ان نعم انها قد ترج بتوم في

موقف بطولي سيؤثر عليه في وقت لاحق :

- لقد نسي عيد ميلادي من اساسه ا كنت ... كنت اعتقد انه

سيتذكره حتماً .

فقال لها مواسياً :

- لا بد ان يتذكره ، لا تخزي .

ثم سألها مختاراً :

- ألم تتلقي اية هدايا من الامل والأصدقاء في الوطن ؟

- كلا ، تسلمت بطاقات فقط .

- البريد يعان من القوضى يا روكسان . سوف تسلمعينها عل الأرجح

في وقت لاحق من الاسبوع .

اومات وأخذت تبحث عن منديلها . ثم قالت :

- خطري ان بطاء البريد هو السبب ، فوالدي وديبورا لا بد ان يكونا

ارسلنا لي هديتي لكنني ... وددت ان اتلقى شيئاً في عيد ميلادي

بالذات ... وخاصة من خوان .

انخرطت في سحبة بكاء ثانية ، وهنا ، لم يستطع توم ان يفي ساكناً

براقبها فتقدم منها وعانقها قائلاً بحنان :

- لا تيكي يا روكسان . ان زوجك رجل كثير المشاغل كما تعلمين ،

لكنه سيتذكر فجأة انه لم يقدم لهذا الواجب المهم تجاهك وسوف يسارع الى

التعويض عن تقصيره . الرجال ينسون هذه المناسبات عادة وهذا واحد من

تقصيراتهم .

لكن كلماته المعزية اخفقت في مواساتها لأن اهرال خوان بحد ذاته لم

يكن الدافع الرئيسي الى تعاستها بل الفرصة الضائعة التي بنت عليها آمالاً

حلوة ... فرصة اقدامها على الخطوة الأولى نحو تحسين علاقتها بزوجها .

وهكذا اطلقت لبكائها العنان فانهمرت دموعها كما لم تنهمر من قبل ،

ولجأت الى كف توم تشدد لديه العزاء .

وعندها رن جرس الحانوت وسمع توم صوت انفتاح بابيه فقال :

- يجب ان اذهب ، يا عزيزتي ...

لكن كلماته قوطعت فجأة اذ انفتح الباب الداخلي ايضاً ووقف خوان

عل عتبة يستمر غضباً فيها بدا قمه النحيل ملتوياً كقم ضبع عل وشك

العواء .

- خوان .

بدأت روكسان تقول بذعر ثم تجمدت وكأنها فقدت حاسة السمع .

تلقت حولها برعب وقد غاض كل اللون من وجهها حتى حاكى

الشمع ... همست بصوت مرتجف متلعثم :

- كيف عرفت اني ، اقصد ... ما ... الذي ... جعلك تأتي الى

هنا ؟

صمتت مرتبة حين اشتعل الشرر في عينيه السوداوين ... وفي بادرة

غريزية وقف توم بينها بلا تفكير ، وكان تصرفاً خطيراً من جانبه اذ ساعد

فقط في اضافة وقود الى ثورة خوان المتأججة ، وحيث امسك بتوم بخشونة

وقذفه عبر الغرفة فسقط ارضاً . وصرخت روكسان حين قبض خوان عل

رأسها بوحشية وكادت أن تفقد توازنها وهو يجرها خلفه في اتجاه الباب

المفتوح . وجعر كالمجنون :

- اخرجي ... اصعدي الى السيارة وانتظريني هناك ا

وكان توم يقول :

- دون خوان ، يمكنني تفسير ...

لم تسمع روكسان اكثر من هذا لأنها اطاعت زوجها فوراً وهرولت خارجاً الى حيث السيارة .

ارتجفت من رأسها حتى اخص قدميها ودب الرعب في قلبها فأخذ ينفق ويهتز بجنون بين ضلوعها . ثمكها اختناق غيظ كما لو ان انفاسها ستوقف الى الأبد . . . وراحت تقول في نفسها ، من السخف ان تخاف الى هذا الحد ! لن تسمح لهذا الرعب بامتلاكها ! ستقف في وجه خوان ، اجل ستفعل ذلك بالتأكيد ! لكنها عبتاً حاولت التخلص من ذلك الاحساس المريض والعنيد الذي يطوق قلبها وعروقها . . . ان عزمها على الشجاعة والتمرد شيء رائع لكن خوان رجل طويل وقوي الجسم بالرغم من نحوله ، انه قوي كالأسد وهي تحت رحمة تماماً . . . وازداد رعبها حين التمع في ذاكرتها قول لويثا بأن خوان اقدم مرة على خنق رجل . . . وقتها ، استبعدت روكسان صحة هذا الحدث بناء على الحنان والرقه اللذين لمستهما في زوجها ، لكنها الآن صارت على ثقة تامة من امكانية اقدام زوجها على القتل . . . وعلى اكثر من القتل ! فهو لن يتوانى على الأرجح عن تعذيب ضحيته قبل الاجهاز عليها . . . ثم سرعان ما نفت هذه الخواطر وعفت نفسها على افكار خيالية كهذه . قد يكون خوان شريراً لكنها متأكدة من انه ليس شريراً الى هذا الحد .

ومع ذلك لم تقدر ان تغلب على ارتجافها وعندما خرج اخيراً من الحانوت وجلس خلف المقود بغضب صامت اسود ، ابتعدت عنه غريزياً والصقت جنبها بباب السيارة وكان هذه المسافة الصغيرة الفاصلة بينهما كفيلاً بأن تؤمن لها مقداراً من الحماية .

كانت الرحلة الصامتة واحدة من أقسى المحن التي ذاقتها في حياتها . . . وقد مرت بمحن عديدة منذ ان تزوجت هذا المكسيكي الأسمر الذي اقتلعها بقسوة من حضن وطنها . حاولت عدة مرات ان تتكلم ، ان تفهمه بأن المشهد الذي رآه بعين الغضب كان مخالفاً للواقع ، لكن الخوف الخائف انفاسها اعجزها عن الكلام . كذلك احرقق الدموع عينيها ، فلقد اقسمت هذا الصباح ان لا تألو جهداً في كسب قدر بسيط من عواطف زوجها ، وكانت سعيدة والامل يملأ قلبها حتى جاءت اللحظة التي اكتشفت فيها ان زوجها قد نسي يوم ميلادها . . . ولو انه تذكر لما ذهبت

ابداً لتزور توم اذ كانت تأمل ان تقضي النهار في صحبة زوجها . اما الآن فتساءلت عن مدى جنوحها الى الأوهام نظراً الى الهوة السحيقة التي ما برحت تفصل بينهما منذ تلك الليلة التي رفضته فيها ، ولذا قد تكون تقابلت اكثر من اللازم حين اعتقدت ان هدية عيد ميلادها ستردم جزئياً تلك الهوة بينهما ، وان تقبلها الودود لها سيكون بمثابة توطئة لنهار سعيد توقعت ان تقضيه معه . . . الآن فقط خطر لها انه لم ينس عيدها في الواقع ، لكنه شعر ان الوقت غير مناسب لتقديم الهدية نظراً الى علاقتها الشديدة التوتر .

وأخيراً ، لما ترجلا من السيارة امام مدخل المبنى الريفي الجميل ، استرعت انتباه روكسان حركة عند احدى نوافذ الطابق العلوي لم ينتبه لها زوجها . . . لمحت وجه لويثا خلف الزجاج ، واستطاعت في تلك اللحظة القصيرة ان ترى بسعة انتصار متشفية تنتشر على قسماته المتفخضة قبل ان تختفي العجوز بسرعة خلف الستائر .

المشهد العاصف والمجنون الذي اعقب دخولها البيت ، سلب روكسان كل قواها وأوقع فيها رجفة شديدة جعلتها تلجأ الى غرفتها وتستلقي خائفة على فراشها . . . عيد ميلادها ! يا له من عيد !

انكشأت على بطنها دافئة رأسها في وسادتها وراحت تبكي حتى جفت الدموع في محجريها ثم انتابها شهقات متواصلة ارجفتها لفترة طويلة . احست بانها مريضة جسدياً . وفجأة عاد اليها تصميمها السابق على ترك خوان ، فهي لا تستطيع ابداً ان تعيش عنفاً كهذا حيث سيلازمها خوف دائم من أن تفعل شيئاً من شأنه أن يثير نقمة خوان وغضبه . . . تهدت بارتعاد كلي حين تذكرت المشهد العاصف ، الغضب المتأجج الذي انتشر فيه كاللهب الحارق ، اتهاماته وادانته . . . قال انها جعلته اضحوك بين الناس بتصرفها المخزي وانها لوئث اسمه . . . طلب ان يعرف كل ما قالته لتوم ، ونظراً الى حالتها الذهنية المشوشة تكلمت بلا تحفظ ، وهكذا وصل غضبه قمة الاحترق عندما علم ان زوجته باحت لتوم بكل شيء تقريباً . حاولت عدة مرات ان تقاطعه لكنه لم يعطها اية فرصة فظلت تجهل كيف عرف انها ستكون في حانوت توم ، وكيف عرف ايضاً بانها كانت ترى صديقها بانتظام .

لم يكن لديها أدنى شك في أن لوبينا هي التي أخبرته ، ولكن كيف استطاعت العجوز أن تطلعه على هذه المعلومات بدون أن تضطر إلى الاعتراف له بتجسسها ؟ وماذا هم ذلك ؟ كانت قلقة ، مشتة ولا ترغب في إقلاق نفسها أكثر بأزمة غامضة لن تتمكن أبداً من الإجابة عليها . لكن الذي حدث أنها تلقت الأجابات ومن فم العجوز نفسها . ففي ذلك المساء ، وقبل الساعة السابعة دخلت لوبينا غرفة نومها بلا استئذان ، حيث استوت روكسان جالسة على سريرها وحدثت إلى العجوز بغضب مستعر ، ثم هتفت قبل أن تقول الأخرى شيئاً :
 - اخرجني من هنا ! اغري عن وجهي والا ألقيت بك خارجاً !
 هل تستطيع أن تقاوم المرأة فعلاً ؟ سألت نفسها ، وأحست أن كراهيتها لها ستزودها بالقوة اللازمة لتنفيذ تهديدها .
 لكن لوبينا غمغمت تزيها :
 - سنيورا ، هذه الطريقة في الكلام لا تليق بالسيدات المتهذبات . أرفقت عبارتها بنظرة قرف خبيثة ، وتابعت بلطف وهي تتقدم قليلاً من السرير :
 - جئت لأشبع فضولك يا سنيورا ، إذ كنت تتساءلين ولا شك كيف استطعت نقل معلوماتي إلى الدون خوان بدون أن أثير ظنونه حول الوسائل التي حصلت بها على تلك المعلومات .
 توقفت المرأة ثانية ، وأصغت إليها روكسان هذه المرة بدون أي تعليق فتابعت تقول :
 - لقد تركت بطاقات المعايدة على طاولة زيتك . اخذت البطاقة التي تلقيتها من حبيبك و... بمحض الصدفة طبعاً .
 وهنا أطلقت ضحكة خشنه تحمّد الدم في العروق ، وأضافت :
 - أجل ، بمحض الصدفة ، اسقطتها امام الدون خوان مباشرة ، عندما كان في الرعدة ...
 فهتفت روكسان وقد ثار غضبها من جديد :
 - اخذت البطاقة من غرفتي ؟ جرؤت على اختلاسها من هنا ؟
 - كان ذلك ضرورياً يا سنيورا للمضي في خطتي ... تظاهرت بالطبع بالنكس في النقاطها عن الأرض فسارع الدون خوان إلى التقاطها بنفسه .

وبطبيعة الحال ، نظر إليها ثم فتحها . يا لمنظر وجهه المخيف في تلك اللحظة ... كان القتل مرسومًا في عينين السوداوين .
 وعندما توقفت العجوز عمداً . حشها روكسان بقولها :
 - هيا ، تابعي ، اني مهتمة جداً بالموضوع .
 كم بدت هادئة ظاهرياً ! هل هذا صوتها ؟ توقفت أن يخرج مجرحاً بالشهقات ، إنما تذكرت أنها نامت لبضع ساعات ولا بد أن الراحة أعادت إليها هدوءها قليلاً . ومضت لوبينا تقول :
 - تملكه الغضب ، كما ذكرت سابقاً ، وأصر على أن يعرف كيف حصلت على البطاقة ، فقلت أنك تركتها في قاعة الاستقبال واني كنت سأخذها إليك . تظاهرت بالخوف والقلق يا سنيورا ، لأبدو تماماً كما الخادمة التي تشارك سيدتها سرّاً شيئاً ... أنا اتقن التمثيل ، وهكذا رحلت احرك قدمي بقلق وامتلأ وجهي ارتباكاً ، وفي الأخير انتزعت البطاقة من يده ... كان تمثيلاً في منتهى الاتقان .
 شردت لنهاية وراء خاطرة مشرقة ثم تابعت :
 - اراد الدون خوان أن يعرف السبب وراء حرجي الشديد فحاولت بالطبع أن ازيح ظنونه جانباً ...
 - فعلت ذلك بطريقة ضاعفت ظنونه !
 فوافقتها العجوز فوراً :
 - كما تقولين يا سنيورا ... كما تقولين تماماً ... تضاعفت ظنونه واضطرت إلى اخباره بكل ما اعرف ، لسوء الحظ .
 أطلقت ضحكة عنيفة أخرى . وبدأ وجهها المغضن أكثر نحولاً وهي تضغط باحدى يديها على قلبها . وسألتها روكسان :
 - لا بد أن زوجي سألك عن طريقة حصولك على المعلومات ؟
 فأومأت العجوز بحبيبة :
 - أخبرته أن امرأة من نساء القرية اكتشفت أنك تقيمين علاقة مع رجل آخر وأنها نقلت إلى هذه الاشاعة .
 شهقت روكسان لدى سماعها هذه الكذبة الرهيبة . لا عجب أن يشور غضب خوان ! لا بد أنه يظن الآن أن الجميع يتبادلون خبر « علاقتها » برجل آخر ... إذن هذا ما جعله يتهمها بتلوّث اسمه ويجعله الضحكة

ثم لك أعضائها واستغسرت من العجوز :

- من الطبيعي أنه سألك اسم تلك المرأة ؟

- زعمت أن اسمها سها عن بآلي ، لسوء الحظ .

- فهمت . . . تابعي يا لوبينا .

- قلت له أن الوضع سبب لي قلقاً كبيراً ، وصدقني لأنه يعلم أنني أهتم دائماً براحتي ، وقلت أنني تكلمت معك مراراً بالموضوع وتوسلتك أن تتخلي عن هذا الرجل الانكليزي لكنك لم تصغي إلي . ثم قلت أن الوضع يحزنني لكنني اعتقدت أنه وجد السعادة أخيراً مع الفتاة الجميلة التي جاء بها من انكلترا . . . بدا شديد الغضب وأراد أن يعرف أين أنت . . . تظاهرت مجدداً بالخروج واختلفت عذراً للانصراف من أمامه . لكنه أدرك أنني أتهرب فقال أنني أعرف مكانك وألح علي بالاقترار . وفي الواقع خنتك ذهبت لزبارة صديقك . . . لشكريه وبما على بطاقة المعايدة .

عادت العجوز تبسم بوقاحة واحتقار تكادت روكان تصفها على وجهها ، لكنها أمسكت نفسها . وتابع لوبينا :

- وهكذا اضطرت إلى مصارحة الدون خوان بشكوكي إذ كان في منتهى الغضب وخشيت أن . . .

فقاطعتها سيدتها بصوت مختنق :

- يا لك من كذابة مرآة يا لوبينا ! اتساءل أن كانت لديك أية فكرة عن مدى انحطاطك ؟

- لا تواجهي الأمر بهذه البساطة . سنبروا . . .

- بماذا تنوين تهديدي ؟ لا يمكنك إيدائي أكثر مما فعلت لغاية الآن .

وبالنسبة إلى اهتمامك المزعوم براحة زوجي فلا اعتقد أنك تكئين له ذرة من المحبة !

وهنا توهجت عينا لوبينا ببريق مفاجيء وبدت لأول مرة تطفح بالشر كمشعوذة شمطاء ومخولة كلياً . . . وصرخت :

- كان يجب أن يظل وفياً لحبيبتني الراحلة ! صحيح أنه يستعملك فقط ليعرض بك عنها كمرأة ، لكنه خان ماروتا بزواجه منك . . .

شيء ما في نبرة العجوز والطريقة التي ذاب بها صوتها وتحول إلى نوع من

الصمت المتأمل ، أصابا روكان بقشعريرة مفاجئة أحسها تسري على امتداد عمودها الفقري . من السخف أن تخيفها المرأة إلى هذا الحد لكنها لم تستطع التخلص من فكرة مرعبة استحوذت عليها ، وهي أن خوان في خطر من هذه المرأة .

كانت لوبينا تغنم كلمات غير مفهومة وكأنها تهذي ، وبرجفة قرف أخذت روكان تراقب ظهور الزيد على زائتي فمها . . . وقالت العجوز بعد قليل :

- لقد أصغيت إلى ما دار بينكما بعد أن جاء بك الدون خوان من حانوت حبيك . قصدتك لأعرض عليك المساعدة لأنك سترغبين الآن في الرجول ؟

توقفت بعد أن صاغت العبارة الأخيرة في قالب يتراوح بين الالفة والسؤال ، وكان رد فعل روكان المبدئي أن ترفض عرضها المساعدة . لكنها راجعت أفكارها وتعملت في إعطاء الجواب . منذ فترة وجيزة ، اقرت نهائياً باستحالة البقاء هنا حيث الحياة مع خوان ستكون شبيهة جداً بالعيش على حافة بحر أو هاية سيواء . قد تكون هناك بضعة لحظات سعيدة لكنها بصورة عامة ستعاني تمزقاً بسبب خوفها منه أو لمعرفتها بأنها لن تتمكن أبداً من الحصول على قلبه الذي وهبه لامرأة أخرى . ومع أنها كانت ، حتى ساعات خلت ، مليئة بالأمل والتضلل ، إلا أنها تجد نفسها الآن ملقاة في أعماق اليأس وانقطاع الرجاء من جراء كراهية زوجها لها وعدم ثقته بها . لقد رفض الأصغاء إلى وجهة نظرها فيما حصل ، والآن ما عادت راغبة في شرحها له طالما إن ذلك لن يفيداً بشيء . . . ولا حتى إذا صدقها ، وهذا غير محتمل على الأرجح .

وأفاقت على صوت لوبينا تقول :

- يمكنني الحصول على جواز سفرك يا سنبروا ، كذلك أستطيع أن أؤمن لك بسهولة رحلة العودة . أنت لا تتأمين إلى هذا المكان وقد توصلت اليوم بنفسك إلى هذه القناعة . . . أن الدون خوان لا يشعر بحبك بشيء . . . عدا مشاعر الكره لأنك لطخت اسمه الطيب بعلاقاتك المشائنة مع رجل آخر . زوجك سيرحب برحيلك ولا شك أنك تدركين هذه الحقيقة ؟ أوملت روكان بتردد وسألتها :

أعرفين أين يحتفظ بجواز سفري ؟

توقفت فجأة اذ اجفلتها فكرة اضطرازها الى التعامل مع مخلوقة شريرة كهذه ، ومع ذلك ، ارادت استرجاع جواز سفرها لأنها متى حصلت عليه ستتمكن من الرحيل ولن يقع بصرها مرة اخرى على لوبيتا . اذن ، ما هنما ؟ من المحط لكرامتها بالتأكيد ان تسمح للوبيتا بمساعدتها ، لكن من المنطقي والضروري ان تستعين بها بحكم الظروف القاهرة . وأجابها العجوز :

اجل ، اعرف أين يوجد جواز سفرك يا سنيورا .

حسن يا لوبيتا ، اذا جئتني به سأرحل عن مزرعة راميريز .

فجالت عليها بعينيها الظافرتين وقالت وفيها اهزبل بتحريك متقلصاً :

من حسن الحظ انك اتخذت هذا القرار . لأنه يخطر لي أحياناً يا

سنيورا ان اقتلك . . . بسدس .

ألديك سدس ؟

يمكنني الحصول على واحد يا سنيورا ، لكن اذا غادرت هذا المكان

فلن تكون هناك ضرورة لقتلك .

خفت صوتها حين بدأت تتمم كلمات مفككة ، ومع ان روكسان تمالكت اعصابها المرتجة من جراء التهديد المريع وانحنت الى الامام لتسمع ما كانت تقوله العجوز ، الا انها فشلت في التقاط كلمة واحدة من شأنها ان تلقي ضوءاً على سائر الكلمات . سألها بحدة :

ماذا تقولين ؟ تكلمي بصوت عال كي اسمعك يا لوبيتا .

فاشتعلت عيناها فجأة وحدثت الى روكسان بنظرة جامدة شاردة ، ثم

قالت بهدوء ويصوت أقل تهجياً :

لا لزوم لاهتمامك بما اقول . اهمني فقط بالعودة الى بلدك . سأرتب

لك كل التفاصيل المتعلقة برحيلك .

اعتنعت روكسان عن التعليق فهي متى حصلت على الجواز سوف تقوم

بترتيباتها الخاصة للعودة .

لزمّت غرفتها وأراحها ان خوان لم يرسل في طلبها . . . وعندما حدثت

انه مشغول بتناول طعام العشاء ارتدت رويًا فوق قميص النوم وتسلكت الى

الحديقة لتتعم بالهدوء والانفراد بعض الوقت . كان ضوء القمر يغمر

الأراضي والبيت الذي بدا ، بشكل غريب جداً ، دافئاً ومرحباً من حيث

وقفت ووكسان تنظر اليه . لم يكن في مظهره ما يخيف ابداً ، وهذا المساء ،

وهي مقفلة باحساس رحيلها الوشيك ، بدا وكأنه يدعوها الى دخوله .

كانت الحداثات متعة للعين ، والأراضي شبه البرية المحيطة بها عبارة عن

عالم ساحري يوج في ألن القمر الفضي . تركت ووكسان أراضي المزرعة

وبدأت تصعد التل المنخفض والمنحدر من قمم الجبال التي تبدو من بعيد

كغيوم صغيرة . لم تشاهد احداً ولم تسمع شيئاً ، وفي هذا الهدوء المحيط بها

استطاعت ان تفكر بوضوح اكثر في خططها . . . لن تدع اباهها وديورا

يعلمان بعودتها الى انكلترا حتى تستقر في شقة خاصة بها ، والا اصرا على

ان تعيش معها في بيتها القديم . هي الآن انسانة مستقلة وتنوي ان تبقى

هكذا . اما كيف سيتقبل والدها اقدامها على ترك زوجها فهذه مسألة لا

تقلقها البتة . لقد اطاعته حين امرها بالزواج من خوان ، ولن تتيج له

المجال في المستقبل ليصدر لها اوامر اخرى .

صعدت التل بتحمل وذهنها منصب على المستقبل . ان كبير صديقتها

المفضلة ومن المؤكد انها ستذهب الى مساعدتها فور وصولها الى انكلترا .

ايس من المفروض ان تواجه صعوبة في ايجاد عمل ، وبعد ذلك ستبحث

عن شقة صغيرة . ولبينا تجد العمل ثم الشقة ، كانت تأمل في سكن

مؤقت مع كبير ، فوالدا صديقتها احبها منذ صغرها ودائماً كانا يرحبان بها

في بيتها .

اكتشفها الصمت العميق حين توقفت لفترة عن السير وأدارت بصرها

حولها . خيل اليها انها في عالم ريفي آخر لا يغمره الا ضوء القمر ، وليس

فيه حتى بصيص نور اصطناعي يظهر من نافذة بيت . وهنا أدركت انها

ضلت طريقها الى واد بين التلال ، اما القرية الواقعة في أسفله فلم تقدر ان

تري أضواءها من حيث تقف . كل ما حوفا مشير للرهبة انما جميل بطابعه

البريء البكر . كانت هناك شقوق صخور ضخمة تبرز في الأفق الأرجواني

البعيد ، تبدو كوحوش هائلة متحجرة مما قبل التاريخ وذات رؤوس

مشوهة الأشكال أو مقطوعة كلياً . رأت أيضاً نباتات صبار ضخمة تبرز

حادة في الفضاء بين الأرض والسماء ، وأذرعها الطويلة ذات اللون

الأخضر الغتم ، ترتفع في غماذج وأشكال عجيبة . . . كان المشهد الغريب

برمته يستلقي كلوحة فضية تحت وهج وجمال القمر المعلق كاسطوانة مستديرة ضخمة فوق الجبال ، فيما تبرز النجوم من خلال القمم التي تشكل شرائح واضحة النخيل .

استدارت روكسان أخيراً عائدة على الطريق ذاتها ، إلا أن أفكارها شردت عما حوفا واستقرت على زوجها ، وللمرة الثانية تراءت لها فقط صورته الواضحة وهو يصلي راکعاً ، فانتابها احساس غريب جداً ، وتمنت فجأة لو تتوصل الى معرفة المطلب الذي يصلي خوان من اجل تحقيقه . فلعل الجواب يوضح لها طريقها اكثر . . . هذه خاطرة غريبة يحد ذاتها فهي تعرف تماماً الى اين ستذهب . لقد رسمت خطتها وسوف تتركه ولن تراه بعد ذلك ابداً في مستقبل حياتها . تساقطت دموعها على خديها قبل ان تستطيع لجمها . . . ما أصعب ان لا ترى خوان ثانية . . . الزوج الذي تعلمت ان تحبه في أقسى الظروف وأشدّها تنافساً . الرجل الذي كان في وسعها ان تسعده لو اتيج لها فقط ان تتوصل الى قلبه . لكن قلبه مات ، قالت لنفسها ، مات مع مارتا . ومع ذلك ، وفي مناسبات عديدة ، استشفت رقة معينة في تصرفاته لا يمكن ان يظهرها رجل ميت القلب . لقد بدا سعيداً في غضون زيارتها لمغربنا . كان بالتأكيد سعيداً . . . وأيضاً بدأ يضحك وينخل عن بعض صرامته التي كانت تضفي على مظهره قوة جامعة .

لكنه عاد الآن الى شخصية النسر الأسود ، ومن خلال غضبه الأسود الشرير واتهاماته العنيفة تكشف لروكسان بوضوح مخيف ان الحياة معه ستكون مستحيلة .

عادت بذهنها الى الواقع فأدركت انها كانت تسير على غير هدى وليس على الطريق التي سلكتها سابقاً ، وهكذا وجدت نفسها في منطقة غريبة تماماً . لقد اعتادت التنزه في التلال وأصبحت على إلمام كامل بدروبها المختلفة ، انما يبدو انها ضلت الطريق وها هي تسير بالفعل على ارض كثة العشب والنبات اذ يصلان الى كاحليها . ما أغباها وأسخطها ! وقتت ساكنة تحدق الى المشهد المغمور بضوء القمر ، وهي تحاول التمييز بين أشكال التلال المتنوعة ، لكن هذه الأشكال لا تبدو جلية كما في ضوء النهار فازدادت حيرة وارباكاً . نظرت الى ساعتها وذهلت اذ رأت عقريها

يشيران الى ان الوقت تجاوز العاشرة . كيف تاهت طوال هذا الوقت بدون أن تدري ؟ لو تستطيع فقط أن ترى ضوءاً واحداً يهديها الى الطريق . . . كان من عادتها أن تبقى مبنى المزرعة الرئيسي تحت بصرها ، لكن يبدو الآن ان سلسلة من التلال تحجبه عنها .

مرت ساعة فجلست على الأرض وهي تحس بداية خوف تلسعها . فكرت في خوان لكنها قررت انه لن يتبع لغياها لأنه ما عاد يدخل غرفتها هذه الأيام . سوف يسلم بانها آوت الى فراشها وهكذا لن يفقد وجودها قبل الصباح . . . حتى الصباح ؟ ارتجفت رهبة وبرداً فالليالي قارسة . تذكرت كذلك وجود حيوانات مفترسة في المكسيك . لكن سرعان ما تذكرت ايضاً انها تعيش في الغابات البكر وليس في أي مكان قريب من هنا . ومع ذلك اجست بشعريرة خوف لم تفارقها بالرغم من تأكيداتها المتكررة لنفسها بانها في أمان تام .

وسرعان ما قررت أن متابعة السير افضل من الجلوس حيث لا بد أن ترى ضوءاً يهديها السبيل . لكن الليل تكاثف من حولها والهواء ازداد برودة ولسعاً . ثم أدركها التعب بشدة فارتجفت خطراتها ، وهنا وصلت فسحة صغيرة مغطاة بطبقة كثيفة من العشب الميت الجاف فاستلقت عليها في انتظار طلوع الفجر .

٩- أحلام محموعة . . .

افاقت روكسان على ضوء الفجر الباهت اللطيف فطرفت بعينيهما واستنوت جالسة وهي ترتجف بعنف. أين هي؟ برقت الذكرى في ذهنها فعاد اليها كل شيء. نهضت واقفة ثم أجفلت لدى احساسها بألم في ساقيهما المتصلبتين. كانت ثيابها الرطبة تلتصق بجسمها وبدأت تسعل وتعطس. لقد أصيبت برشح، وهذا شيء متوقع، فكرت في نفسها وهي تزداد نفمة وغضباً على تصرفها اللاحق. نظرت حولها، فاستطاعت فوراً ان تميز اشكال التلال المختلفة وعرفت تماماً الجهة التي يجب ان تسلكها مع انها لم تكن متأكدة بأي حال أين هي بالضبط. كل ما عرفته انها كانت تسير بعيداً عن المزرعة ليلة أمس وقد استدلت على هذا من بعد المسافة التي تفصلها عن البيت. بدأت تسير بتمهل في البداية بسبب الخلل في ساقيهما، الا انها استطاعت ان تزيد سرعتها بالتدريج وترافق بزوغ الشمس، وان تعجب بروعتها بالرغم من شعورها المؤلم بالهزيمة.

كان هناك لون وردي عميق يضيء الغيوم بهالة عظيمة فوق الافق تمثل الكرة النارية الضخمة نفسها. وفوق هذه الحالة وعلى جوانبها، بدت السياه اللؤلؤية كوشاح لامع يتماوج على حافة الشروق. اما الجبال فبدت مرقطة بنحاس مصهور، فيما جوانب الوادي ما تزال هاجعة في الظل.

واخيراً اشرقت الشمس وكست السياه بمجد عابر ينيه بالوان برتقالية وذهبية ونحاسية داكنة غنية. وهنا استيقظت جوانب الوادي وقد خدشها مركب الالوان المتقدم صوبها والمتزامن مع ارتفاع الشمس التمهّل الى كبد السياه. مضت روكسان في سيرها الخبيث انما كان التعب يعيقها اضافة الى

بشور جلدية تكوّنّت على اصابع قدميهما. لقد جففت الشمس ثيابها واحست بامتنان للدفع الذي بعثه في اوصالها لكنها كانت تعطس بين حين وآخر، وصعابها كان يسبب لها المأحداً في صدرها. . . ان عدد الاميال التي قطعتها ليلة أمس شيء لا يصدق! فكرت في نفسها وهي تتابع سيرها المضني بارهاق وتكشف ان وصولها الى درب مألوف استغرق ساعتين تقريباً. كانت الساعة تشير الى الثامنة والنصف صباحاً عندما دخلت البيت اخيراً. التزمت الهدوء وهي ترتقي الدرج وراعت ان لا تنفس بصوت مسموع حتى وصلت غرفتها واحتضت فيها. اتجهت عيناها الى الباب الفاصل بين غرفتيهما واستطاعت ان تسمع تحركات خوان من خلاله، ثم دخلت الحمام وفتحت حنفية الماء الساخن.

بعد ان استحمت وبدلت ثيابها بدا لها شكلها مقبولاً، فنزلت الى قاعة الطعام. . . ليس بدافع اي رغبة في لقاء خوان بل لمعرفة الاكلية بانه سيرسل في طلبها اذا تخلّفت عن تناول الافطار ولاسيما انها تخلّفت مساء أمس عن تناول العشاء.

ومراعاته المعتادة والمتظمة لأداب المائدة، قرّب لها الكرسي فجلست عليه وهي تتساءل كيف سينتظيان فترة الطعام هذه بعد الذي حدث بينهما عصر أمس. استقرت النظر الى وجهه وهو يتخذ مكانه المقابل لها. كانت خشوته ترعب البصر، انما كان في عمق عينيه تعبير آخر من التأمل الحزين، تعبير غائر يصعب فهمه، الا انه اثار فيها حناناً جارفاً تجاهه. كم هو غريب هذا الرجل ليستطيع ان يحير عواطفها الى هذا الحد، ويجعلها تقرر في لحظة انه عفريت مريد وان تشفق عليه في اللحظة التالية كل هذا الاشفاق. . . وفكرت في نفسها، انه يبدو متعباً جداً، فجذّاه محمراً قليلاً من قلة النوم. لم يأكل الا قليلاً وشرب فقط نصف فنجان من القهوة. لقد حذق اليها بضع مرات اثناء تناول الطعام لكنها احست انه كان ينظر اليها دون ان يراها. . . أين تسرح افكاره؟ خلف مارتا على الأرجح، مارتا التي لم تكن لتخذله ابداً كما فعلت هي بحسب اعتقاده.

هل يتوجب عليها ان تحاول شرح الوضع؟ سألت روكسان نفسها وهي تشعر فعلياً بحبها له وبخنين عميق اليه بدا انه يتصارع مع قناعاته الراسخة باستحالة الحياة معه. . . اية فائدة ستجنيها من محاولة اطلاعه على

الحقيقة؟ هزت رأسها بحركة لاواعية، فهو ليس في مزاج قابل للاصغاء ولن يصدقها. في أي حال، كانت بالفعل ترى نوم بانتظام، وقد رافقته إلى شاطئ أكابولكو وسبحت معه، كذلك اتسمت على أسرارها وياحت له بكل شيء تقريباً حول الطريقة الغادرة التي لجأ إليها خوان ليحملها على الزواج منه... أن طبيعة خوان المعقدة تحول دون تفهمه وتقبله لكل هذه الأمور، ولن يقدر على الاختصاص أن يغفر لها ابداً. فلقد أصيبت كرامته في الصميم، وروكان تعلم أنه سيمضي وقت طويل قبل أن يصبح قادراً على النسيان.

استأذنها بترك المائدة بصوت جاف، وكان يهم بالتهوض عن كرسيه عندما انتابتها نوبة سيئة من السعال، فضغطت صدرها بيدها عزيزياً وعضبت شفتيها من جراء الألم الذي أحسته بمزقتها. فالحال دون أن تظهر في صوته دلائل الخشونة المسيطرة على وجهه:

- هل انت مريضة؟

سارعت إلى هز رأسها وقالت:

- كلا. بالطبع لا.

بدأ واضحاً أن خوان لم يقتنع بجوابها إذ استقر بصره للحظة على المكان الذي وضعت عليه يدها لتخفف عنه الألم. وقال بعد هنيهة:

- ذلك السعال... لم تحسي به يوم أمس. هل فعلت شيئاً جعلك تصابين بالبرد؟

هزت رأسها مجدداً وفكرت، يبدو قلقاً على... لكنها رأته يمدحها بنظرة مقبولة فأحسّت بأنها تتورد قليلاً لكونها كذبت عليه، وقالت معترفة:

- ذهبت ليلة أمس في نزهة قصيرة، ويرد الطقس بعدئذ.

ازداد عبوسه وسأل:

- بالطبع أخذت معطفك معك؟

- نسيته... أن أخذه.

فضاقت حدقتاه وقال:

- لقد قضيت هنا وقتاً كافياً لتدركي أنك تحتاجين إلى ارتداء معطف في المساء.

- قطعت مسافة أبعد من التي انتويتها.

- إلى أين وصلت؟

نظرت إليه بسرعة، إلى عينية الناقبتين، فعه المتقلص... وتلك الحركة في حنكه. ماذا يحول في ذهنه، أو بالأحرى، بماذا يتهمها؟ بدأت تحس غضباً فردت بجمود:

- ليست لدي أي فكرة إلى أين وصلت. كنت بمفردي.

أضافت الكلمتين بلهجة متحدية بدت عديمة التأثير عليه إذ بقي تعبير وجهه كما هو.

وبعد قليل قال ينصحها:

- من الأفضل أن تلزمي الفراش هذا النهار.

بدأت تقول:

- لا ضرورة لذلك على الإطلاق...

لكن نظرتة استكتها وسمعتة يقول بحزم شديد:

- متبقين اليوم في فراشك يا روكسان، وغداً أيضاً إن لم يخف سعالك.

قضمت شفتيها مغناظة. لقد أرادت اليوم أن ترى نوم لتأخذ رأيها حول أسعار السفر ومواعيد الرحلات الجوية، ولتعرف منه إذا كانت هناك إجراءات خاصة أو عقبات محتملة. لكنها تستسجن الآن في غرفتها، واستتجبت كذلك أن تُرغم على البقاء فيها لينبأ بقرار خوان صلاحيتها الصحية لمغادرتها.

كانت على وشك النطق باحتجاج آخر حين بدأت تسعل ثانية، وهذه المرة اشتد عبوس زوجها وحظر اخذوداً في جبينه. قالت بسرعة:

- آسفة، سأأخذ جرعة أخرى من...

فقاطعتها فوراً:

- عندما تأوين إلى فراشك سارسل لك مع دكتوريس دواء للسعال.

- شكراً.

أطاعت يده التي أشارت إليها بالصعود وهو ينهض من معبده وسبقته في مغادرة الغرفة. وفيها هي عند النافذة في غرفة نومها، انفتح الباب ودخل خوان بنفسه يحمل كوباً يحتوي سائلاً غامق اللون، واستفسر بحزم:

- لماذا انت خارج الفراش؟ حالتك الصحية لا تسمح لك بالتهوض.

- خوان، أنا...

تجاهل الاحتجاج الذي بدأت تشرحه واعلمها قائلاً بهدوء:
- الطيب سيكون هنا في حوالي نصف ساعة. اصعدي الى الفراش
واشربي هذا.

وضع الكوب على المنضدة المجاورة للسريّر واستدار اليها سائلاً:
- هل سمعت ما قلت يا روكسان؟

- نعم.

قالت اخيراً بخضوع. كانت تشعر الآن بوهن. وما لبثت ان اصيبت
بنوبة اخرى من السعال الحاد، فسأل زوجها باهتمام:

- أتريدني ان ارسل لك دكتوريس لتساعدك على نزع ثيابك؟
- لا، شكراً يا خوان. سأتدبر اموري بنفسى.

اكتفى بإيلاء خفيفة وغادر الغرفة. وهنا احت روكسان بارتحاء ساقبها
وبشعريرة تسري في ظهرها بشكل متواصل. ما كان أضيائها حين توغلت
في سيرها بعيداً ليلة امس! وكلما فكرت في غلظتها كلما صعب عليها ان
تفهم كيف استطاعت ان تتعد كل ذلك الابتعاد عن حدود المزرعة.
بدت الغرفة أكثر صقيعاً مع ان اشعة الشمس الدافئة كانت تتدفق من
خلال النافذة. وفي خلال خمس دقائق نزع ثيابها وارتدت قميص
النوم ثم اندست بامتنان بين الأغطية.

الطيب الذي دخل برفقة خوان كان رجلاً مكسيكياً طويلاً، ذا شارب
اسود صغير ووجه بني مغضن. وقف بمحاذاة السريّر ينظر الى روكسان
للحظة طويلة ودون ان يتفوه بكلمة. ثم قام حرارتها وعبس سائلاً ايها
بلغة انكليزية مكسرة:

- اين كنت يا سنيورا حتى تعرضت للاصابة بنزلة برد كهذه؟ سوف
تلتزمين الفراش اسبوعاً على الاقل.

فهتقت وفمها يرتجف:

- اسرع!

لا يمكنها ابداً ان تبقى هنا، لوحدها تماماً، طيلة اسبوع كامل! واردفت
تقول:

- دكتور، اكيد انك تستطيع اعطائي شيئاً من شأنه ان يشفي في وقت
اسرع؟

فحص صدرها ناقرأ اياه باصابعه وعاد يقطب جبينه قائلاً:
- كيف استطعت ان تؤذي نفسك الى هذا الحد؟
فأجاب خوان ليوفر عليها عناء الرد على اسئلة الطيب:
- اصيبت زوجتي بنزلة برد ليلة امس عندما خرجت تنزه بدون معطف.
فقال الطيب مفكراً:

- اهذا كل شيء؟ هل تشعرين بألم ما في جسمك؟
اومات روكسان بالايجاب فساها الطيب عن مكان الألم وهو ما يزال
يتأملها مفكراً، فقالت:

- في ساقى بالدرجة الاولى وهناك بالطبع ألم صدري الناتج عن
السعال.
- احقاً؟

رفع حاجبه قليلاً وتابع يقول بتمهل شديد:
- اظن انك لم تخبريني كل الحقيقة يا سنيورا.
فقد قلبها احدى خفقاته، وقبل ان تمجد وقتاً للإجابة تدخل خوان في
الحديث وكانت تبراته مستكرة يشوبها الغضب. . . قبض النظر عن رأيه
الخاص في تصرفها بدا واضحاً انه لم يكن ينوي السماح للطيب بأن يلمع
الى ان زوجته كانت تكذب عليه. قال له بحدة:

- اكيد ان زوجتي اخبرتكم الحقيقة. اني اظالك بالاعتذار اليها.
سارع الطيب الى هز رأسه وقال:
- آسف يا دون خوان، لكن يجب ان اخبرك ان هناك دليلاً على تعرض
طويل الأمد للبرد والرطوبة.

التفت عينا روكسان بعيني زوجها اثماً فقط للحظة خاطفة اذ انها ارخت
اهدابها بسرعة، وادركت فوراً ان خوان سيقهر هذه الحركة على حقيقتها،
اي انها علامة ذنب.

نقل خوان بصره الى الطيب سائلاً:

- تعرض طويل الأمد؟

- اجل، لبضع ساعات، بن لساعات عديدة بحسب رأيي.

تلا ذلك صمت طويل ورهيب ثم قال خوان:

- حسن يا دكتور، ان طول الوقت الذي قضته زوجتي في الخارج لا

يشكل أهمية حقيقية. المهم هو أن تصف لها دواء يخفف ألم صدرها.

- بالطبع سأفعل ذلك.

بعدما شيع الطبيب حتى الباب الرئيسي عاد خوان بعد عشر دقائق الى غرفة زوجته. وقف عند السرير وسألها باقتضاب وهو يحدق اليها بعينين نصف مغمضتين:

- والآن؟

فروت له كل ما حدث. واردفت قائلة:

- ما قدرت ان اقر بهذا امام الطبيب كيلا يخرج موقفك. . . فانا لم اكن

صريحة معك من قبل.

فاستوضح بصوت لطيف للغاية:

- لماذا لم تكوني صريحة معي من قبل؟

- لم احسب انه كانت هناك ضرورة لاخبارك. اقصد. . . عندما نزلت

لتناول الافطار لم يخطر لي اني سأضطر الى ذكر الموضوع بالمرّة. لكنني بدأت

اسأل فرحت تطرح علي اسئلة.

- اسئلة لم تجيب عليها بصدق.

ظل صوته لطيفاً بيد انها ارتجفت وليس بفعل هذه المرة. اجابته

وهي تحس ريفاً في قلبها واعصابها فيما كان ألم صدرها يزداد سوءاً لحظة بعد

اخرى:

- لا ادري في الحقيقة لماذا اخفيت عنك بعض الحقيقة يا خوان. انا. . .

لا استطيع شرح. . .

صمتت ومررت يدها بسرعة على عينيها ثم اشاحت عنه لتخفي ارتجاف

شفتيها المفاجيء.

واضافت بصوت عثيق:

- انا آسفة.

اعقب ذلك صمت طويل وانتابها رغبة ملحة في تلطيف غضبه وفي ان

تشعر بيده الباردة تلمس جبينها الملتهب بالحصى، وبعد قليل قالت

بارتباك:

- لو. . . لو اننا ما تخاصمنا يا خوان لما. . . لما كنت ذهبت ابداً ولما زرت

توم كذلك. لكنني كنت تعيسة جداً. . . تعيسة الى حد عفيف. فأمس كان

عيد ميلادي، و. . . كنت اود كثيراً ان تذكره. . .

غريزة ما جعلتها تدبر رأسها، فوجدت انها تتحدث الى نفسها لاذ ان

خوان كان قد غادر الغرفة بدون ان يحدث صوتاً.

في موعد الغداء ارسل الطعام اليها على صينية بواسطة. . . لوبيتا.

كانت عليها علبة تحوي اقراص دواء وكوب ماء اضافة الى قطعة صغيرة من

السمك الابيض على صحن ابيض، وشريحتين رقيقتين من الخبز وبعض

الزبدة وابريق صغير من الشاي الى جانبه حليب وسكر.

قالت العجوز:

- هل لك ان تجلسي قليلاً يا سنيورا؟

- اتركي الصينية على الطاولة يا لوبيتا

ادارت وجهها بعيداً عن نظرة المرأة المزدرية، هذه المرأة التي تكرهها

اشد الكره واردفت:

- يمكنك الانصراف.

- انصرف يا سنيورا؟ لم أقل بعد ما جئت لأقوله.

- لا أشعر بأي رغبة في الاصفاء اليك. هيا، غادري هذه الغرفة، وفي

المستقبل ارسلني طعامي مع دولوريس.

تجاهلت لوبيتا أمرها وقالت:

- امس مساء، رأيتك تخرجين يا سنيورا. سهرت في انتظارك لكنني لم

ارك ترجعين. في الساعة الرابعة صباحاً جئت غرفتك اذ حسبتك قد

رجعت بدون ان اراك. هل كنت مع حبيبك يا سنيورا؟ استرقت اليكما

السمع حين اخبرت الدون خوان انك قد ضللت طريقك، لكن تعبير

وجهه دل على شك. انا اعرف تعابير جيداً لأنني اعمل لديه منذ سنوات

طويلة. هو يعتقد انك كنت مع صاحبك لذا عليك ان تغادري البيت

بسرعة. . . حالما تسمح لك حالتك الصحية بالسفر. اذا لم تفعلني فسوف

يقتلك!

- عرفت اني كنت خارج البيت طوال الليل؟ ألم يخطر لك اني قد اكون

اضعت طريقتي؟

التوت شفة العجوز العليا ثم اغمضت عينيها كما لو انها تعاني ألماً

وقالت:

- كنت أتمنى ان تضيعي وان تظلي ضائعة الى الأبد! لكن أملي ذاك خاب! أم، أصبحت بخيبة فظيمة! إنما لم يكن ممكناً ان تموتي حيث كنت، لأنك حتى لو عجزت عن إيجاد طريقك للعودة الى هنا، لاستطاعوا العثور عليك.

توقفت فجأة عن الكلام ووضعت يدها على قلبها وهي تشفق وكأنها في حاجة الى هواء... ثم تابعت:

- لا بد انهم كانوا سيرسلون فرقة انقاذ الى هناك حيث يعثرون عليك في النهاية. لكن كان من المناسب لي اكثر لو انك مت! اذ لاستطاعت حبيبي مارتا، في تلك الحالة، ان تضحك من جديد!

حدثت اليها روكسان مذهولة. بدا لها مستحيلاً ان تتجرد العجوز من الرحمة الى حد تركها هناك لتتوت، وبعد ان خامرها الظن في احتمال ضياعها. سألتها:

- لقد عرفت اني ضللت طريقي، اليس كذلك يا لوييتا؟
- لا اعرف شيئاً من هذا يا سنيورا. قلت لك فقط اني تخليت ان تكوني ضائعة، إنما راودني احتمال بانك كنت في الحقل مع صاحبك.

نظرت اليها روكسان تتأملها واحست فجأة بشيء من الاشفاق يتحرك في داخلها ويمتزج بمشاعر الكراهية التي تحملها لهذه المرأة. انها غبولة تماماً، ولا ريب انها اصبحت بهذا الجنون منذ زمن بعيد بسبب وفاة الفتاة التي احبتها كثيراً. وتوصلت روكسان الى قناعة بان المرأة قد كابدت عذاباً مبرحاً خلال كل تلك السنوات وما تزال تعاني وسوف تتعذب الى ان يريحها الموت من عذابها. كان الزبد يطفئ الآن من فمها وعضلات وجهها تنقلص كما لو انها تعاني الماء جسمانياً حاداً. ابتلعت روكسان ريقها، واجتاحتها للحظة قصيرة موجة حنان عارمة جعلتها تنسى كراهيتها لها. بدا غريباً وشاذاً بالنسبة الى تفكير روكسان، المنطقي ان تدع لوييتا حياتها تتركز برمتها حول شبح فتاة لا تربطها بها اية قرى دموية، بل كانت فقط ابنة مخدوم عملت لديه فيها مضي.

ثم تركت خدمته لتأتي وتعمل لدى والد خوان. قطعت روكسان فجأة اذ بدا لها غريباً جداً ان تقدم لوييتا، التي احبت مارتا الى درجة الوله، على ترك ام الفتاة من الأساس، ومع ذلك تركتها. الا انها استمرت تزور ام

مارتا وتقتضي كل اوقات فراغها مع البنت الصغيرة، حيث كانت تعتني بها وهي طفلة وتخرجها للتنزه في عربتها. اذن لماذا لم تبقى في خدمة تلك العائلة التي كانت تنعم معها بسعادة متناهية، وكل الظواهر أكدت هذه الحقيقة؟ اجل، انه لأمر غريب جداً بالفعل ان تحب مارتا الى حد الوله، وتستطيع بالرغم من ذلك ان تتركها وتلتحق بخدمة اناس آخرين وفي مكان آخر. عادت لوييتا تضغط على صدرها بيدها وراحت روكسان تراقب بانسحار الأصابع الطويلة الهزيلة وهي تنفتح وتنقبض بتقلص وفي الأخير قالت لها بلطف:

- لوييتا، ارجوك ان تنصري. اريد أن أتناول طعامي تألفت عينا العجوز، لكنها بدت مغلفة بنوع من الانبهار كما لو انها لم تستوعب ما قالته لها سيدتها، وتعمفت:

- سوف تتحسن حالتك في يوم أو اثنين. سارتب امر رحيلك عن هذا المكان يا سنيورا... لا تقلقي ابداً. هل تعديني بذلك؟
فقالت روكسان ثانية:

- ارجوك ان تنصري.
فامتثلت المرأة للطلب دون ان تنفخ بشيء آخر.

تناولت روكسان قرصين من الدواء بعدما قرأت التعليمات على العلبة وكانت مكتوبة باللغة الانكليزية. ثم امسكت على ظهرها ورفعت الاغطية الى ما حول كتفها. كانت نائمة عندما جاء خوان بعد بضع دقائق. وقف عند السرير يتأمل بحزن وشروء وجهها المتورد بالحمى، وبعد ردهم النقط الصينية غير المسمومة الطعام، وغادر الغرفة بهدوء.

التهبت الحمى لعدة ايام حيث بالكاد احست بما كان يجري حولها. لكنها وعت بشكل غائم انها كلما فتحت عينها مرة كانت تجد خوان هناك... دائماً هناك... يجلس بالقرب من سريرها.

ومن خلال الامواج الضبابية التي تغلف ذهنها كان يخيّل اليها انها تسمعه يقول، وبشرات لطيفة تحف بها رقة عميقة:

- روكسان... يا حبيبي الغالية.
وعندها، كانت تنهد برضاء وتستسلم مرة اخرى للظلام الزاحف عليها.

ثم اطل يوم شعرت فيه بانها تحسنت كثيراً. تذكرت تلك الاحلام التي حملت اليها صوت زوجها الرقيق الملهوف فغمرها اليأس من رأسها حتى قدميها. . . لو انها استطاعت فقط ان تظل كذلك الى ما لا نهاية، ان تستيقظ لتسمع كلمات تبعث فيها الراحة والامل. لكنها عادت الآن الى الواقع، وكل ما تستطيع التفكير فيه هو كيف ان خوان غادر غرفتها بقرق عندما كانت تحاول افهامه السبب الذي دفعها الى ذلك التصرف.

اول شيء لاحظته بعد ان بدأت تهتم جدياً بما حولها هو ان مظهر خوان قد طرأ عليه تغيير خطير، فوجهه صار انحل وهناك فجوات عميقتان تحت عظمتي خديه البارزتين، وبشرته فقدت لونها النحاسي الجذاب واصبحت رمادية وجافة، وعيناه ما عادتا تتطلعان ببريق وحدة بل صارتا مظلمتين بشكل ما. اما فمه فهذا ممتلئاً وحين تأملته رأته يتحرك بصمت وتقلص. ماذا جرى له؟ هل كان مريضاً هو الآخر؟ طرحت عليه هذا السؤال فهز رأسه واجابها بهدوء:

- لا، يا روكسان. كنت فقط اعاني من القلق.

- كنت قلقاً. . . علي انا؟

لم تكن قد ابلت من مرضها تماماً لتستطيع ان تعلق اهمية خاصة على جوابه، وتابعت تقول:

- انه للطف منك ان تقلق علي.

هل خرجت كلماتها جامدة وباردة بالفعل ام انها تصورتها كذلك؟ لم يكن لديها نية واعية في ان ترفع الكلفة معه، بل العكس هو الصحيح. وعاد يقول:

- انت زوجتي يا روكسان. . .

توقف عن الكلام متهدأ بعمق، وصمت لفترة ثم تابع قائلاً:

- من الطبيعي ان اقلق عليك.

زوجته. . . الزوجة التي اخذت مكان حبيته القديمة. اذن هذا هو السبب الحقيقي لقلقه. . . لم يشأ بطبيعة الحال ان يفقد مارثا من جديد. لم يخطر لها ولا للحظة ان امستنتاجاتها هذه خسيسة وغير منطقية. فهي ما تزال مشوشة اللحن بفعل المرض وتعتقد بالتالي انها ترى الوضع كله من وجهة نظر واضحة. كانت ما تزال عند رأيها بأن الحياة مع خوان ستكون

مستحيلة، ومع مرور الأيام، شغلت معظم وقتها بالتفكير في ترك المزرعة وفي العودة الى بلدها.

كان تحسنها الصحي يسير في ثبات مطرد الا انها خسرت من وزنها الكثير وبدأت انحل من السابق. وجهها صار الآن كبرشمان بلون الكريم، نعومة بشرتها بقيت كما هي الا انها خلت من التآلق الجذاب الذي يعطي الدليل على العافية المتكاملة.

خوان ايضاً، بدا انه يتحسن عن ذي قبل، لكن الكتابة لم تفارق عينيه السوداءين طوال الوقت، واستتجبت روكسان ان مرضها الثقيل قد اعاد اليه بقوة ذكرى ايام العذاب الرهيب الذي قاساه عندما وقعت مارثا فريسة للمرض. . . من الطبيعي ان يعيش تلك الايام من جديد، وهذا هو سبب ذلك التعبير الكتيب والدائم في عينيه. مارثا لا تبارح افكاره ابداً. . .

ولأن روكسان كانت تحس هذه القناعة بشكل فعلي فقد وجدت نفسها تعامل زوجها بيروء اكثر من اي وقت مضى. صحيح انها تشعر نحوه بحنان لكنها تشعر كذلك ان الوقت قد حان ليصرف ذهنه كلياً عن التفكير في حبيبته القديمة. لو انه فقط يفعل هذا لاصبحت اكيدة تماماً من استطاعتها الوصول الى عواطفه، ولقدردت، من خلال حبهامه له، ان تجعله بالتدريج يبادلها حبها قليلاً، وبالتالي سيتمكنان من ان يجادا السعادة.

وذات يوم، فيما روكسان تستريح على مقعد في الحديقة اقبلت عليها لوبيتا. كان خوان غائياً عن البيت وقد ذهب الى مدينة مكسيكو في مهمة تتعلق بالعمل. كان يخبرها يومياً، وهمت بالتهوؤ لظنها بان لوبيتا جاءت تخبرها بانه على الهاتف، لكن المرأة لم تأت لهذا الغرض بل لتحديثها عن جواز السفر وعن الترتيبات التي تستطيع تأمينها لرحيل روكسان.

وقالت بظنك اللهجة الحسنة التي تخفيها روكسان الى اقصى حد: - سيكون الامر سهلاً يا منيورا. سابتاع لك بطاقة سفر بالطائرة ان كنت لا تملكين المال المطلوب. . .

- كل ما اطلبه هو جواز سفري يا لوبيتا. قلت سابقاً انك تعرفين مكانه. هل يحتفظ به زوجي في غرفة مكتبه؟

سألها بفضول، لظنها بانها قد تستطيع الحصول عليه بنفسها وهكذا تصبح في غنى عن مساعدة العجوز. لكنها اجابتها:

- كان في غرفة مكتبه ، لكنه الآن في حوزتي .
- كيف تجرؤين على الاختفاظ بشيء يخصني ؟ ماذا سيقول زوجي اذا
اكتشف انك اخذت جواز السفر من غرفته ؟ لا جواب . . . وبدت لوييتا
شاردة في عالم آخر ، فأكملت روكسان بحدّة :
- سوف يطردك لو اكتشف السرقة .
ايقظتها هذه الكلمات واكتست عيناها ببريق تخيف صارت روكسان
تعرفه جيداً . وهتفت :

- لن يطردني ابداً ! لم اقل لك انني الرابطة الوحيدة بينه وبين مارتا ؟
لاذت روكسان بالصمت . لقد ادى مرضها الى اصابته بنوبات اكتئاب
لم تستطع التغلب عليها ، وشعرت الآن كما لو ان ثقلًا لا يطاق يضغط عليها
من كل جانب . . . وفكرت في نفسها ، حتى لو انها تعاونت مع خوان على
انجاح زواجهما فان ظل مارتا سيظل قائماً بينهما ومتمثلاً في لوييتا . . .
الرابطة التي ذكرتها المعجوز اكثر من مرة .
ولا احساسها بالهزيمة ، ولرغبتها فقط في ايجاد نوع من الراحة الذهنية ،
طلبت الى لوييتا ان تمضي في الترتيبات التي قالت انها تستطيع تنفيذها .

١٠ - متى يبدأ الحب !

مر اكثر من شهر على رحيلها من المكسيك ، وروكسان ما تزال شاحبة
ونحيلة . كانت تعمل كمربية لطفلتين ، بعدما نصحتها والدّة صديقتها
كليريان تجد عملاً في مكان يؤمن لها السكن ايضاً . وقد قالت لها آنذاك :
- متى استقررت وارتاح ذهنك قليلاً يمكنك الشروع في البحث عن
مكان مناسب للسكن .

وفي الواقع ، أبدت السيدة ستوكتون استعداداً كبيراً لاستضافة
روكسان في بيتها ، وما كانت لتوان عن ابقائها لديهم بصورة نهائية ، الا
ان روكسان رفضت ان تتقبل ما يعتبر بالفعل نوعاً من الصدقة ، فكل ما
كانت تملك من مال دفعته ثمناً لبطاقة السفر الى انكلترا . وتابعت السيدة
ستوكتون تقول :

- كن نرجسي بطبيعة الحال في السكن مع خدمتك ، انما كبداية سوف
يناسبك هذا الترتيب اكثر من سواء . . . في رأيي على الأقل .
كانت بالطبع نصيحة ممتازة تقبلتها روكسان بامتنان واستطاعت ان
تحصل على اول عمل تقدمت له بطلب خطي . كان العمل قاسياً مرهقاً
وساعاته طويلة ، فالصغيرتان تسيقان باكراً ولا تأويان الى الفراش الا
عند الساعة الثامنة مساء . وعلى الرغم من ذلك شكرت روكسان ربها على
انشغالها الكامل اذ ما عادت تجد وقتاً فائضاً للتفكير في خوان ، وفي ما كانا
سيبوصلان اليه من سعادة لو انه استطاع فقط ان يحرر أفكاره من ذكرى
خطيئته المتوفاة .

لم تكن بعد قد أجرت اي اتصال مع والدها ، لكن مع مرور الأيام

وانقضاء شهر على وجودها في ربوع الوطن ، شعرت ان من واجبها الاتصال به في أقرب فرصة . وبما ان يوم الثلاثاء هو يوم عطلتها الاسبوعية فقد اعلمت مخدومها انها ستغيب ذلك النهار حتى المساء .
فقالت السيدة ثورب - انكسبون وهي تتأمل روكسان وتقطب جبينها بعمق :

- اوه ، حقاً ؟

ولكونها صبية ومتزوجة من رجل اعمال ثري ، كانت تقضي معظم وقتها في ركوب الخيل ولعب اليريدج ، أو في مجرد الثرثرة وتناقل الاشاعات مع زوجات أخريات في مقبل العمر يعشن حياة منعمة وكسولة شبيهة بحياتها . كانت بلدة وايوود في مقاطعة شروپشاير تعج بهذه النوعيات من السكان ، والتي تنصف بأصوات عالية وضحكات خاوية وتقضي معظم أوقاتها في لهو وفراغ . كان الضجر مرسوماً على وجوههن ويمثل بوضوح في قضائهن أوقاتاً طويلة عند مزين الشعر أو تلك المرأة البارعة التي تحيي ثروة طائلة من تدليك وجوههن في صالون التزيين الذي افتحت في البلدة .

وتابعت سيدة البيت تقول :

- كنت ارجو أن تبقي هنا لأنني ابغني الخروج للتسوق . ليس لدي ما ارتديه وأنا مدعوة الى ثلاث حفلات عشاء . الا نستطيعين ارجاء ما تترين القيام به ، الى يوم آخر ؟ لا اعتقد انه امر ضروري الى هذا الحد ؟
- انا ذاهبة لرؤية والدي يا سيدة ثورب - انكسبون .

- اهذا كل شيء ؟ سأعطيك اجازة يومين في الاسبوع المقبل .

ترددت روكسان اذ احسنت نفسها في مأزق ، فهي تكره ان تعامل بهذه الطريقة على يد شابة لا تكبرها بالسن الا قليلاً ، وفي الوقت نفسه اعترافها قلق من احتمال فقدانها عملها اذا اصررت على موقفها . وبعد لحظة من التفكير اجابتها بهدوء :

- افضل ان اذهب اليوم يا سيدة ثورب - انكسبون . الا يمكنك أنت ان ترجئي التسوق الى يوم غد ؟

هزت الفتاة رأسها باستعلاء وقالت :

- غداً ثقفل الحوانيت باكراً .

- صحيح .

ترددت روكسان ثانية ، ثم هزت رأسها بدورها وأردفت بحزم :
- سأذهب اليوم في اجازتي المقررة . اظن من الأفضل ان نحافظ على اتفاقنا بالنسبة الى يوم الاجازة هذا ، اذ انخس في المستقبل الا اعرف متى يمكنني التغيب بالضبط .

رمقتها مخدومتها بنظرة غاضبة لكنها توقفت عن المناقشة . وهنا خطر لروكسان انه ليس من السهل إيجاد مربيات اطفال هذه الأيام بعكس انواع العمل الأخرى والمتوفرة بكثرة .

لم تستطع التغلب على الارتعاش البسيط الذي انتابها وهي تضغط على زر الجرس بعد ان سارت بمهمل على عمر البيت المؤدي الى الباب الأمامي . لغاية الآن ، لم تدع اباهما يعلم بمعدتها الى انكسبرا ، كذلك يجمل بالطبع انها قد وضعت حداً نهائياً لحياتها الزوجية مع خوان . كان يتخذ موقفاً متمناً جداً من هذه الأمور ، وقد ثبت لها ذلك من خلال الزواج الذي ارفعها عليه صيانة لسمعته ، لكنها خرجت الآن من دائرة سيطرته بل ابتعدت عنها كثيراً . ثم ان واقعها الاستقلالي عزز الى حد بعيد قوة شخصيتها وثقتها الذاتية اللتين اكتسبتها خلال فترة زواجها من خوان . وهكذا ، اذا حاول ابوها فحسب ان يؤنبها على تصرفها الأحمق بترك زوجها فسوف ترتدي معطفها وتخرج من بيته فوراً .

أجفلت ديبورا وارقدت الى الوراء اذ عجزت عن تصديق ما تراه عينها عندما فتحت الباب ووجدت نفسها تواجه الفتاة التي ربتها منذ ان كانت طفلة وليدة ولها بضعة ايام من العمر ! وهتفت تقول :

- روكسان ! أنا في حلم أم يقظة ؟

فقفزت الى شفتي روكسان ابتسامة جنون وردت :

- بل انا ، بلحمني ودمي يا ديبورا !

ولما استمرت المرأة تحديق اليها بذهول كما لو انها ترى شيئاً ، أردفت تقول :

- ألن تدعيني الى الدخول ؟

- بالطبع ، تفضلي .

فتحت الباب على اتساعه وهي ما تزال مشدوهة وعلقت قائلة :

- انك تبسمين ، اذن لا يمكن ان يكون هناك خطب ما ... اين زوجك ؟
 - لم يأت معي .
 دخلت روكسان الردهة واستغربت ان تجدها خالية من شعورها السابق باللفة وان تحس كما لو انها تدخل بيتاً غريباً .
 وسألته ديورا وكأنها تود تأكيد واقع ما :
 - سوف يأتي في وقت لاحق ، اليس كذلك ؟ في اي حال ، سيكون والدك مسروراً لرؤيتك .
 كانت الغيوم ، منذ الفجر الباكر ، تتجمع منخفضة في الفضاء ، وبما ان المدخل الخارجي المسقوف مظلم بطبيعته ، لم تلاحظ المربية العجوز شحوب روكسان ونحول جسمها الشديد الا عندما أصبحت في غرفة الجلوس ، حيث اتسعت عيناها دهشة ، بعدما احتوت الفتاة بنظرة شاملة سريعة . لكن قبل ان تتيح لها فرصة للكلام اخبرتها روكسان انها كانت مريضة وشرحت السبب بقولها :
 - ضللت طريقي في البراري وقضيت ليلة كاملة في العراء وهكذا أصبت ببرد حاد فلم استطع التغلب على نتائجه الا بعد وقت وطويل . اني التحسن الآن وقد بدأت استعيد وزني المفقود .
 - لكن لا يجدر بك ان تتجولي هكذا اذا كنت مريضة ...
 فرفعت روكسان يدها معترضة ... ها هي ديورا تعود الى عاداتها السابقة فتلمي عليها ما هو مسموح وما هو ممنوع من التصرفات ...
 - قلت لك اني التحسن .
 توقفت قليلاً ثم أردفت :
 - بل صرت معافاة تماماً يا ديورا ، والدليل اني اعمل حالياً ... مربية لطفنتين .
 حدثت اليها المرأة مشدودة وبدا واضحاً انها لم تصدق ما سمعته اذناها . قالت :
 - لا احسبني افهم ما تقصدين ! لديك زوج يعيلك ، اذن ما الذي يضطرك الى العمل ؟
 - انا اعمل هنا ، في شروشاير . لقد تركت زوجي .

- تركت ...
 لوححت ديورا يديها في الفضاء مرتعبة وأردفت :
 - كلا ! بحق السماء ! والدك سوف يموت من الغار !
 جلست روكسان بهدوء على احد المقاعد وكانت قد نزعته معطفها وقفازها في الردهة وتركتها هناك . وسألت مربيته :
 - اين والدي يا ديورا ؟
 - انه خارج البيت وأحمد الله على ذلك ! اخبريني كل شيء يا صغيرتي .
 تقولين انك تعملين مربية اطفال ؟ لماذا لم تأتي الى بيتك ؟ يجب ان تفعل ذلك . اعطيني اسم هذه السيدة التي تعملين لديها كي اخبرها بالهاتف ... تعملين مربية اطفال ! هذا حقاً لا يليق بك على الإطلاق !
 ابوك لن يرضى بهذا الوضع بتاتاً !
 ابسمت روكسان من طرافة الموقف وقالت :
 - اخشى يا ديورا اني مضطرة الى تحييب أملك فلقد أصبحت الآن سيده نفسي وانا عازمة على الاستمرار في عملي .
 حدثت اليها ديورا للحظة كالحرساء ثم أعلنت في تأكيد :
 - انت مريضة بالفعل . لا شك انك مريضة والا لما كنت تتحدثين الي على هذا النحو . وبالنسبة الى قضية انفصالك عن زوجك ، فأروني لي القصة بكاملها .
 روت لها روكسان اجزاء معينة منها فأخبرتها فقط ما ارادتها ان تعرفه . لم تذكر اسم مارتا بتاتاً لكون ديورا لا تعرف شيئاً عنها . واكتفت روكسان بالقول ، كتعليل لانفصالها عن خوان ، بأن طباعها المتنافرة حالت دون اتسجامها الزوجي ولهذا قررت ان تهجر تلك الحياة التي لم تكن لا هي ولا زوجها يستمتعان بها .
 وللمرة الثانية شخصت اليها المربية العجوز بلسان مفقود . وبعد فترة طويلة من الصمت والتأمل قالت لها بلطف :
 - يا صغيرتي ، ينبغي ان تأتي الى بيتك وتدعيني واباك نعتني بك . وبعد ان يشفي ذهنك تماماً سوف ترسلك ثانية الى زوجك .
 فردت عليها روكسان بهدوء :
 - ذهني سليم وليس به أي انحراف . انا اعرف ما تبغين يا ديورا ...

انت لا تريدني ان اتابع حياتي الماضية والتي تركتها لدى زواجي من
خوان . انا انسانة مستقلة ، وسأبقى هكذا دائماً .

قطبت السيدة المعجوز وقد تحول اهتمامها الى جهة اخرى اذ بدت
تستوعب التغيير الحقيقي والمخيف الذي طرأ على الفتاة بعد ان كانت مثال
الطاعة التي اعتبرتها ديورا دائماً امرأً بديلاً . . . وقالت تسألها :

- تبدين في منتهى الهدوء يا صغيرتي . الا يزعجك البتة ان تدعي
زواجك يتحطم بهذا الشكل ؟

فأحست روكسان بغصة مؤلمة تسد حلقها وتجمعت خلف عينيها غيمة
من الدموع الجائعة . لكنها حافظت ظاهرياً على تصرفها القاتر وأجابت :
- الزيجات المحطمة صارت شيئاً عادياً هذه الأيام ، انا لا اختلف عن
مثات الشابات الأخريات ، وسوف اشق طريقى الخاصة في الحياة .

توقفت حين رأت السيدة المسنة تهز رأسها بذهول مستمر وبالم غصص .
بدا ذلك واضحاً تماماً لروكسان ، فهي تعرف ماذا يعني كل تغيير يطرأ على
وجه مريبتها وحركاتها ، ولذا اردقت بلطف :

- يؤسفني ان اسبب لك هذا الحزن والقلق يا ديورا ، لكن لا انا ولا
خوان استطعنا الاستمرار على ذلك النحو .

كانت تعلم انها تكذب ، فخوان ما كان ليتوانى عن الاستمرار في تلك
الحياة الى الأبد . . .

وغصمت ديورا تخاطب نفسها :

- زواج محطم . . . لن يتغلب أبوك المسكين على هذه المصيبة ابداً .

وفجأة فقدت روكسان صبرها وقالت بحدة :

- ما كان يجب ان يرغمني عليه من الأساس !

- برغمك ؟

- كلاهما ، انت وأبي ، ضغطتما علي حتى قبلت .

فذكرتها ديورا بلطف :

- لكن يا صغيرتي ، يبدو انك نسيت تلك الظروف القاهرة التي أوجبت
الزواج .

فردت قائلة :

- كانت تلك الظروف مخالفة تماماً لظواهرها . لقد حاولت ان اشرح

لكما الوضع في حينه لكن كليكما لم يكن مستعداً للاستغناء الي . اما انا
فكنت على استعداد للمغامرة بكل شيء مقابل ان تنصريني وتقفني الى
جانبي ، لكنك خذلتي يا ديورا . . . وهكذا امتثلت كالعادة ، وكنت
تلك الطفلة المطيعة التي تحمي رأسها دائماً لرغبات أبي ولرغباتك . والآن ،
هذه هي النتيجة ! لكن ، هناك في الواقع فائدة واحدة جنيتهما من كل الذي
حصل وهي اني تحررت من سيطرة الآخرين وأصبحت سيدة نفسي .
- لا اصدق انك تتكلمين بهذه الطريقة !

بدت ديورا تعاني توتراً كبيراً اذ كسا وجهها شحوب شديد ، فانتاب
روكسان احساس أكيد بان المرأة كانت تتخيل المشهد الذي سيعقب وصول
أبيها الى البيت . . . وأكملت مريبتها قائلة :

- انت لست نفس الفتاة التي رحلت من هنا .

فسارعت روكسان الى الموافقة بقولها :

- لا اشبهها بأي شيء . لقد تغيرت ، وأنا مسرورة بذلك .

- وخوان . . . اكيد انه انزعج كثيراً من انهيار الزواج ؟

لاذت روكسان بالصمت . لم تكن تنوي اخبار ديورا بأنها هربت من
بيت الزوجية في اثناء غياب زوجها عن البيت . واستعرضت في غيبتها
ذكرى ذلك اليوم ، كما لو انها تشاهد شريطاً سريعاً . . . حزم حقائبها ،
التاكسي المنتظر عند الباب ، تسلمها جواز سفرها من لوبينا التي زودتها
قبلاً بالمعلومات المطلوبة حول مواعيد السفر الجوي وثمن البطاقة والوقت
الذي تستغرقه حتى تصل المطار . . . لقد وقفت المرأة المعجوز على درج
المدخل تراقب رحيلها عن المزرعة ، اما هي ، فبكت في التاكسي طيلة
الطريق ، واضطرت الى ان تستعين بكل ما لديها من تصميم كيلا تطلب
الى السائق ان يحول وجهه سيره ويعود بها الى البيت . فحتى في وضعها
الحازم ذاك ، بدت قوة خوان تمتد نحوها عبر المسافة وتحجبها اليه موهنة
عزمها . وحتى وهي موجودة هنا ، وآلاف الأميال تفصل بينها وبينه ،
يبدو لها أحياناً ، ان شخصيته كانت قوية الى درجة ستمكن معها من
اجتياحها في نهاية المطاف .

قالت اخيراً وهي تحس نظرات ديورا الاستجوابية مسلطة عليها :
- لقد حكم على زواجنا بالفشل منذ البداية . اعتقد ان خوان ادرك

ذلك الآن .

- شيء محزن للغاية . الزيجات المنهارة تثير الحزن دائماً .

حدثت روكسان للحظة في القضاء ، ثم عزمت على وضع حد لهذا الحوار الشاذ الذي بدت ديورا عاكفة على متابعته ، فسألتها بصوت مرح :

- ألن تقدمي إلي فتجاناً من الشاي ؟ أنا اعتبر ضيفة كما تعلمين .

ومقتها المرأة بنظرة شديدة العيوس وقالت :

- لا تقولي أشياء كهذه ! اقول لك بصراحة يا روكسان ان تصرفك هذا يصدمني أكثر مما تتصورين . ارجو الا تكوني في طريقك لأن تصبحي واحدة من أولئك الشابات العصريات !

- اتقصدين طريقة لباسي ؟ ما يمنع ان اصبح كذلك يا ديورا ؟

ثم استعاد صوتها رتته العطوفة المرحّة وأضافت تقول :

- سأكون عصرية ، على حد تعبيرك ، من حيث تصميمي على الاحتفاظ بشخصيتي المستقلة . في الوقت الحاضر علي ان اقوم بهذا النوع المعين من العمل ، وحتى يحين الوقت لأتلفت حولي ، اذا جاز التعبير ، وأرى الى أين أود ان اذهب . وأتذاك سأبحث عن عمل أنسب من هذا ، كذلك سأبحث عن شقة استقر فيها أو عن بيت صغير جميل .

فقالت ديورا تنصحبها بصوت ينم عن قلق عميق :

- تعالي الى بيتك يا صغيرتي ، فأنت لم تعتادي ابداً العناية بنفسك .

- انني اعطني بنفسي في الوقت الحاضر .

- لشد ما تغيرت !

أعلنت ديورا هذا بصوت حزين وانجهت الى المطبخ لتعد ابريقاً من الشاي .

كانتا تشربانه معاً عندما وصل أبوها . صوت دوران المفتاح في القفل جعل ديورا تحفل بوضوح فيما احست روكسان برفيف في اعصابها ، انما لم تكن خائفة بأي شكل . رفعت بصرها عندما دخل والدها غرفة الاستقبال وراحت عينيه تسعان بدهشة . سارعت الى تأخير السؤال الذي لمحه يتكون على شفثيه فقالت مبتسمة :

- مرحباً يا أبي . قبل لحظة خلعت ، كنت اسبب صدمة لديورا المسكينة وذلك باخبارها بأني قد تركت زوجي .

صعدت من قبل السيد هاتون ، الرجل الطويل المستقيم الظهر ذي القامة العسكرية والذي بدا فجأة انه يحني كتفيه قليلاً . وفي الأخير استطاع أن يسألها :

- صحيح ما سمعته منك يا روكسان ؟

- انا وخوان انفصلنا عن بعضنا يا أبي وقد عدت الى انكلترا بصورة نهائية .

وهنا قالت ديورا بلهجة مأساوية :

- الطفلة وجدت عملاً ، انها تشتغل كمربية .

فأضافت روكسان تكمل المعلومات :

- قبل أن ندخل في أي نقاش ، اعلمك ايضاً اني لا انوي العودة الى هنا . فمن اليوم فصاعداً سأشقى طريقني في الحياة بنفسني .

حدث اليها بعينه الرماديتين وطريقة غيضة طالما جعلت رجالاً عديدين يرتجفون في حضرته ، لكن روكسان لم تؤثر فيها هذه النظرة بناتاً . بل انها واجهتها بعينين ثابتتين . . . رأسها يرتكز على كتفيتها باعتزاز ودقنها يشمخ في قوة ومجد .

- هل تدركين انك تخاطبين أباك ؟

سألها أخيراً وقد تعمد شحذ صوته بالصرامة ليدكرها بأنها لم تخاطبه بهذه الطريقة ولا مرة واحدة في حياتها .

لكنها اجابته بهدوء :

- كلمتك باحترام ولم يدر مني عكس ذلك . لقد بينت لك فقط ما انوي فعله ، كيلا نحاول أن نفرض ارادتك علي مثلاً فعلت ديورا . لقد قررت ان اقف على قدمي الاثنتين ، ولا شيء قد تقوله انت أو ديورا سيجعلني أغير رأيي .

- فهمت .

حافظ على كرامته ظاهرياً بشكل جيد ، لكنه تألم داخلياً ، كما تألمت ديورا . احست روكسان بالأسف انما لم يزعزع هذا الشعور عزيمتها وقال والدها :

- اذن قررت الا تعودى الى زوجك والا ترجعي كذلك الى بيتك ؟
هزت رأسها نفياً وردت :

- اصبحت الآن مسؤولة عن نفسي يا ابي .

فنظر اليها من حيث يقف على عتبة باب غرفة الاستقبال ، حيث لم يتحرك نصف خطوة منذ ان وقع بصره عليها وهي تجلس هناك تحنسي الشاي ، وبطريقة بدت له بالتأكيد طريقة لا مبالية الى ابعد حدود اللامبالاة . ثم استوضحها بقوله :

- ما السبب الذي حملك على ترك زوجك ؟

فاجابت ديورا بالتيابة عنها :

- لأنها لم ينسجها مع بعضها البعض .

فخاطب ابنته بتزعج من السخرية الحادة :

- ألم تناخري قليلا في اكتشاف هذه الحقيقة ؟

تهتدت روكان من اعماق صدرها وقالت بكبرياء هادئة وهي تهض عن مقعدها :

- هذا الحديث ليس مفزحاً لأي منا يا ابي . سأنصرف الآن ، واذا

اودتني ان ازورك في أي وقت من الأوقات فإيا عليك الا ان تخبر هذا الرقم التلفوني .

كانت قد سحبت دفترها صغيراً من حقيبة يدها وبدأت تدون الرقم على إحدى صفحاته ، ثم انتزعتها من الدفتر وقربتها منه لياخذها ، لكنه نظر اليها بسرعة ومنها الى وجه ابنته ثم مر بها صامتاً نحو غرفته . فما كان من روكان الا ان وضعت قطعة الورق الرقيقة على الطاولة وخرجت الى الردهة لتسرد معظنها وقفازها .

تبعها ديورا باكية وقالت تناشدها :

- يا عزيزتي . . . لا تخرجي بهذه الطريقة .

فردت عليها بهدوء :

- ديورا ، لم اسمع منك ولا من ابي كلمة عطف واحدة ، كلاهما اهتم فقط بما يعتبره خطأ وصواباً وما اهتم قط بما قد اكون اقاسي من عذاب ، ولذا ادركت الآن ان كل الحب الذي منحكما اياه لم يجد لديكما تجاوباً حقيقياً . فأنتم متحتماني حماية بدل الحب ، وكانت حماية مفرطة .

لكن بالرغم من توكيدها الصريح هذا فقد سارعت وأحاطت كحفي ديورا بذراعيها وقبلت خدها .

وفيا كانت تفتح الباب الأمامي لتناغم البيت ناشدتها المرأة المعجوز يقولها :

- دعينا نراك ثانية يا طفلي العزيزة .

- ذلك يتوقف على أبي ، اذا دعاني الى هذا البيت فسوف أتي الدعوة بكل سرور .

ثم هبطت الدرج ركضاً ومضت تسير بسرعة الى موقف الباص بقلب مثقل انما بعزم ثابت وثقة . انها امرأة متزوجة بالرغم من حقيقة عدم وجود زوجها معها ، وبالتالي يجب أن يُسمح لها بتسيير دفة حياتها حسيباً تريد . هذا ما تعول على فعله ، حتى لو أدّى الى قطع علاقتها بوالدها نهائياً . لم يكن هناك مناص من أن يسمع جويل نبأ عودتها الى انكلترا ، وذات يوم ، وبعد مرور اسبوعين على زيارتها لوالدها وديورا ، اخبرتها بخدومتها ان شاباً جاء البيت في غيابها طالباً رؤيتها ، وأضافت السيدة ثورب - اتكنسون بجدية :

- ارجو ان تفهميه بالآتي ثانية يا روكان ، فمن احد شروطي الا اسمح لأصدقاء مستخدماتي الشبان بزيارتهم في بيتي .

كانت روكان وقتها في غرفة الطفلين ريتا وعمرها ستان ونصف سنة ، وإيما وعمرها ستة أشهر ، وقد وضعتها في سريرها لتناما قيلولة بعد الظهور . كانت تجمع ثيابها المتسخة لتحضيراً لغسلها ، فرفعت بصرها بشيء من الدهشة عندما خاطبتها خدومتها هكذا ، ورددت عابسة :

- شاب جاء لرؤيتي ؟

- شاب يدعى السيد جويل بوير .

احست روكان بتورد بسيط يصبغ وجهها واجابت :

- اوه . . . سأل لرؤيته حالاً ، أين هو ؟

- في الحديقة . تركته واقفاً على الدرج . احسبك سمعت ما قلته قبل لحظة ؟

فردت روكان بصوت بارد :

- اجل سمعتك يا سيدة ثورب - اتكنسون .

كانت في هذا الوقت قد بدأت البحث عن عمل آخر وفضلت عملاً في مكتب ، لكنها لم توفق بسبب عدم خبرتها في مجال السكرتارية ، فضلاً عن عدم وجود مكان تسكن فيه حتى لو واثاها الحظ ووجدت من يستخدمها في مكتب بدون خبرة . لكنها تستطيع في أي حال ان تسكن مع والدتها كغير بصورة مؤقتة ، وهي لا تمنع في الأقدام على ذلك ما دامت قادرة على دفع مبلغ لقاء هذا السكن .

خرجت الى الحديقة لتلاقي جويل ، ووجدته واقفاً عند سياج من الأعشاب يتحدث الى ما وراءه من أزهار .
وعنهم حين وصلت مكانه :

- روكسان ... تناهى الى انك قد تركت زوجك . و... و...

ارتج عليه فبسط يديه امامه وتابع يقول :

- ما زلت احبك .

رأته يتلع ريقه بحركة متقلصة ، وأردف يسألها :

- هل يوجد بعض الأمل في أن نعود الى بعضنا ؟ هل باشرت معاملات الطلاق ؟

نظرت اليه ملياً وتساءلت كيف يمكنها ان تفعل ذلك بدون أن يخامرها أقل احساس بالعاطفة أو الحنين أو الندم ؟ لكن وجه زوجها تراءى لها يزهاج حاجباً عنها وجه الشاب ، كما لو انه يذكرها بأنها ما تزال ملكه .

وأجاب جويل بهدوء :

- لم يدري بيني وبين خوان أي حديث عن الطلاق .

- ولكن ... هل انفصلتما نهائياً ؟

ردت عليه بايماء إيجابية ولما رأته يلوذ بالصمت سأله بلطف :

- من أعلمك بعودتي الى انكثرا ؟

- التقيت بصديقة لكثير ، اخبرني انك تعملين لدى امرأة هي السيدة ثورب - اتكنسون ، وهكذا حصلت على عنوانها من دليل التليفون . ارجو الا تكوني تضايقت من مجيئي لرؤيتك ؟

- ايذا .

نظر في عينيها وقال :

- لقد تغيرت يا روكسان .

فذكرته بقولها .

- واجهت الكثير من المصاعب

- وبرغم ذلك لم ينجح الزواج ؟ كيف له ان ينجح ... مع زوج

غريب ؟ ان تقاليدهم تختلف عن تقاليدنا وطرق معيشتنا .

بقيت صامتة فتابع يقول :

- اشعر بانى عدلتك يا روكسان ... لقد حدثت امور كثيرة استعصى

علي فهمها . لكني ادركتها في وقت لاحق ... بعد فوات الأوان .

ادركت انه من المستحيل ان تكوني ذهبت مع ذلك الرجل بحض

ارادتك

ولما استمرت تلوذ بالصمت عاد يقول :

- كانت هناك اشياء كثيرة لم استطع فهمها . لقد ارغمت على الزواج

من رجل لا تحببه وحسناً فعلت بتركك اياه . كانت لديك كل الأسباب

الموجبة لتركه .

تأملته روكسان وقالت برفة :

- من الواضح اني تركته لسبب معين لكني لم افعل ذلك لأنى لم اكن

احبه .

فقط حاجيه بحيرة واستوضحها :

- أتقصدين ... انك تحببه فعلاً ؟

- هذا بالضبط ما عنيت يا جويل .

- لكن لماذا انت هنا ، اذن ؟

- قلت لتوي انه كان لدي سبب خاص دفعني الى تركه .

فهز رأسه بشيء من نقاد الصبر لكن الحقيقة ما لبثت ان تراءت له

فقال :

- فهمت ، ان زوجك لا يبادلك الحب . أليس كذلك ؟

فأومات بحية :

- اجل ، هذه هي الحقيقة .

- لو كان يحبك لتبعك الى هنا .

فاعترفت بحزن :

- لقد فكرت في هذا .

- هل كنت تأملين ان يلحق بك ؟

ارتجفت شفتاها ، لكنها عدا عن هذه الدلالة العاطفية البسيطة ظلت محتفظة بهدونها ورباطة جأشها . . . الآن فقط ، عندما انفتح موضوع زواجها ، تأكدت الى أي مدى كانت تنوق في لا وعيها ، الى ان ترى زوجها يظل عليها فجأة أنياً لاستردادها ومبرراً ذلك بأنه اكتشف أخيراً انه يحبها . هل كانت لتعود معه لو اتي ؟ اجل ، بل وتعود بفرح وبصلاة شكر تغمر قلبها .

واعترفت أخيراً بقولها :

- كنت أمل فعلاً ان يأتي الي .

تكانف العبوس في جبهة جويل وقال :

- انسي أمره يا روكسان . . . باشري معاملات طلاقك منه كي نستطيع بعد ذلك ان نتزوج . . . ستعود رأساً الى البداية . فقاطعته بلطف :

- لا ينبغي ابدأ ان تحاول العودة الى البداية فتصرف كهذا من النادر ان ينجح . . . اتي اعمل في هذا البيت لأني ارفض العودة الى الحياة السابقة التي عشتها قبل زواجي .

- هل ستعملين وتكدهين كجارية طوال حياتك ؟

فاضطرت الى ان تقول :

- انا لست بجارية كادحة . ما الذي أوحى اليك بهذه الفكرة ؟

- استوحيتها من صديقة كلير اذ قالت ان السيدة ثورب - اتكنسون ليست لطيفة معك كما يجب .

- هذا صحيح ، لكنها لا تفكر ان تعاملني كجارية . لن اسمح لها بذلك .

فبدأ يقول محاولاً اقناعها :

- روكسان ، ارجوك ان تفكري بعرضي وتولي بعض اهتمامك .

هزت رأسها بحزم وقالت :

- لقد فات الأوان يا جويل . انا احب زوجي وسأحبه دائماً .

وقفت عند السياج تراقبه وهو يسير مشمهاً في اتجاه البوابة الخارجية ، ثم استدأرت على عقيها ورجعت الى غرفة الطفلتين والى الغسيل الذي انتوت

انجازها . وجدت الصغيرتين تائمتين ورأت أمهما تنهج الى المرائب وبعد قليل سمعتها تنطلق بالسيارة . وفكرت روكسان ، لقد ذهبت لثمضي العصر مع عدد من صديقاتها الشابات ، وسوف يقتلن الوقت بالثرثرة الفارغة واحتساء الشاي ومن ثم تستقل كل منهن سيارتها الخاصة ، ويعدن الى بيوتن مهرولات كي يتسنى لهن تزيين وجوههن وارتداء ثياب انيقة ليستقبلن ازواجهن لدى رجوعهم من المدينة بواسطة القطار .

كانت روكسان في المطبخ تخرج الثياب الصغيرة من الغسالة الكهربائية عندما دخلت عليها دورا ، المرأة التي تأتي ثلاث مرات في الاسبوع لتنظيف البيت ، وناولتها برفقة .

- أهذه لي أنا ؟

قفز قلبها من مكانه اذ أدركت غريزياً ان البرقية مرسلة من نوم . لقد كتبت اليه تخيره عن عملها وطلبت اليه ان يجيبها برسالة عندما يجد وقتاً لذلك . بسطت الورقة المطوية بأصابع مرتجفة ، وما ان انتهت من قراءتها حتى غاصت كل نقطة دم من عيها .

- لوبيتا اطلقت النار على الدون خوان . حاله خطرة . . .

لوبيتا . . . وتلك الغمغمات الهاذية بعد ان ذكرت المسدس ، وبعد ان أقرت بأن فكرة قتل روكسان كانت تراودها أحياناً . هل فكرت ايضاً بقتل خوان ؟ واضح انها فعلت .

وهضت روكسان بصوت معذب :

- لماذا لم احزر بأنها قد تفعل ؟

لكن في اللحظة التالية تغلبت على رد فعلها القصير تجاه معلومات البرقية المخيفة وهضت بصوت عال :

- دورا ، تعالي هنا !

- ماذا . . .

- عليك ان تعتني بالطفلتين لبيتنا تعود أمهما يا دورا . البرقية تستدعي حضوراً عاجلاً . . .

- لا اقدر يا روكسان ، انت تعرفين جيداً اني اغادر دائماً في ثام الثامنة والنصف .

- يجب ان تبقي ا ان زوجي في حالة الخطر وانا ذاهبة اليه !

- من؟ لم اعرف بأن لديك . .

- اطللي في سيارة تاكسي ثم خابري المطار.

كانت روكسان تصعد الدرج ركضاً وهي تهرق لدورا بهذه التعليمات، واكملت هاتفة من فوق:

- ناديني عندما تؤمنين الاتصال بالمطار.

- ولكن . . .

فصرخت روكسان بانفعال عندما رأت المرأة واقفة بلا حراك:

- اسرعي دورا، ارجوك! اسرعي!

- اوه، حسناً، سأفعل.

غمضت دورا وبدأت تجري الاتصالات.

وفي هذه الاثناء، وضعت روكسان كل ما تملك من مال في كيس صغير وحشرت فيه ايضاً قميص نوم وادوات اغتسلها ومن ثم جواز سفرها، واخيراً اختطفت معطفها وركضت تنزل الدرج. وجدت ان دورا قد آمنت اتصالاً هاتفياً بالمطار فتناولت روكسان الساعة منها.

بعد ثلث ساعة كانت تستقل التاكسي السريع بها الى الطائرة.

كان خوان في احد مستشفيات مدينة مكسيكو وقد نقل اليه عندما وجد الاطباء ان حالته تستدعي اجراء عملية جراحية ثانية. كانت روكسان قد ارسلت برقية الى توم من المطار في انكلترا تعلمه فيها بقدموها، فاحست بالارتياح حين رآته في انتظارها لدى وصولها المطار المكسيكي. كان يعرف بالطبع عنوان المستشفى فتكفل بأخذها اليه على جناح السرعة.

ظلت لدقائق طويلة تحشى التلفظ بالسؤال الذي عذبا طوال الرحلة الليلية على متن الطائرة، وفي الأخير استفسرت متلعثمة:

- هل . . . هل . . هو في طور الاحتضار؟

فردّ توم:

- اعرف فقط ان حالته خطيرة. لقد استخرجوا الرصاصة بدون صعوبة على ما يبدو، لكنه اصيب بعد ذلك بمضاعفات استوجبت نقله الى المستشفى هنا كي تجري له جراحة ثانية. يؤسفني ان لا اكون دقيقاً في معلوماتي يا روكسان، اذ عرفت كل هذا عن لسان شخص آخر، ذلك الرجل العجوز الذي يأتي من المزرعة احياناً الى حانوتي كما تعلمين، ومنه

وحده اطلعت على مجريات الامور، اضافة الى اجابات المستشفى التي كنت اتلقاها عندما اخبر للاستفسار عنه. وفي كل مرة كانوا يقولون انه لا يزال على لائحة الخطر

- كيف حصلت الحادثة؟

- فجأة، فقدت لوييتا عقلها، ويبدو انها حصلت على مسدس من مكان

ما، واطلقت النار على الدون خوان.

تملك روكسان عذاب ذهني رهيب حين تحيلت المشهد فتساقطت دموعها على خديها كما للمطر. وهضت وهي تعصر يديها الراجفتين:

- لا اطبق الضكير في ذلك. لا بد انه عانى الماً فظيماً.

لم يجد نوم ما يقوله، ولما تمالكت نفسها قليلاً سأله:

- متى وقع الحادث؟

- قبل اسبوع تقريباً، لكنني لم اسمع الخبر الا صباح امس فأبرقت اليك فوراً. عرفت انه سيهجمك الاطلاع على ما حصل.

- اجل . . . شكراً يا توم. لن انسى لك هذا الفضل ما حييت.

اكتفى بسعلة خشنة كما لو ان الحرج يسد حلقه وانعطف بالسيارة داخلاً بوابة المستشفى. بعد خمس دقائق كانت روكسان تمحلق الى الرأس الاسود الشعر المستلقي على الوسادة، وتتساءل عما اذا كان خوان غائباً عن الوعي ام ينام نوماً طبيعياً، فالمرضة التي قادتها الى جناح المرضى الخاص، لم تقدر ان توضح لها شيئاً لجهلها اللغة الانكليزية. لكن سرعان ما دخل طبيب الى الغرفة، ومع انه رمقها بنظرة غريبة الا انه لم يضيع الوقت في طرح اسئلة غير ضرورية كأن يسألها اين كانت طوال فترة مرض زوجها، اولماذا جاءت الآن بالذات. اكتفى بالقول:

- يسرني ان اراك.

ثم اضاف بنبرة خالية من اي تعبير:

- ارجو يا سنيورا، ان تكوني قادرة على تزويد زوجك بالرغبة في الحياة.

سأله وعيناها تتسعان دهشة:

- لا افهم ما تعني.

- هل كتبنا متفصلين؟

ولما اومأت بالايجاب مضى يقول انه لم يعلم بوجود زوجة الا عندما ذكر

خوان ذلك في أثناء هذيانه، لكن حين استجوبه بعدما استعاد وعيه وألح في الاستجواب، رفض خوان أن يتحدث عنها بنائاً. وأضاف الطبيب بقول بالصوت الخامد آياه:

- إذا استطعت أن تقنعه تماماً بأنك تحببه فسوف تتحسن حالته الصحية بسرعة. لم تعد هناك أية مضاعفات على الإطلاق، باستثناء تلك النسبية عن فقدان رغبته في الحياة.

- هل... يرغب... في أن يموت؟

شعرت بألم رهيب يملأ قلبها... فخوان ما عاد قادراً على متابعة المعركة ولا ينبغي إلا أن يلتحق بحييته. بسطت يديها بحركة عاجزة وسألت الطبيب بمرارة:

- ما الذي يمكنني فعله؟

- أخبرتك لتؤي يا سيوري.

- لكنك لا تفهم... أنا لست...

خففت صوتها ثم انقطع حين فتح خوان عينيه على حوض غرة. وفي طرفه عين رمت بنفسها عليه، وقد نسيت كلياً جرح العملية في جسمه، وانخرطت نيكى وهتفت مرودة:

- لا تتركني يا خوان! ابق إلى جانبي... أنا احبك واحتاجك.

سألت دموعها على وجهها وانتقلت أيضاً إلى وجهه. وعادت تقول متأوهة:

- لا تتركني... دكتور، لا تدعه يتركني.

فتقدم الطبيب وانفضها بيدين لطيفتين عن الفراش حتى وقفت على قدميها، لكنه ظل يسندهما ممكاً بكتفيها، وحسنًا فعل لأنها احست بساقيها تلويحاً تحتها ولا تقويان على حملها.

- لا تدعه يموت... حتى لو أراد هو ذلك!

- روكسان.

لم تكن الكلمة أكثر من همة مبسوطة، لكنها استدارت بسرعة وراحت تمسح الدموع عن وجهها بظاهر كفها، وهتفت:

- خوان!

- تعالي هنا.

تركها الطبيب تذهب فعادت إلى جانب السرير، انحنى عليه تلمس جبينه بشفتيها وناشدته قائلة:

- خوان. لا تتركني. أنا احبك واحتاج وجودك... اعرف أنك لا تستطيع ابداً أن تحبني لكني سأتعلم العيش مع هذا الواقع... أنا لا احبك؟

بدا غائم النظرات ومتعباً جداً. استدارت روكسان ورمقت الطبيب بنظرة متسائلة إذ خشيت أن لا يستطيع خوان تحمّل هذه المؤثرات. لكن الطبيب أشار لها بيده مطمئناً. وعاد خوان يقول بصوت واهن:

- أنا لا احبك؟ لكني أخبرتك مرات عديدة أنني احبك...

هز رأسه بمنة وسرة على الوسادة وسأها:

- هل قلت ذلك حقاً؟

ذهلت للحظة لكنها سرعان ما تنبّهت إلى رنة اللحاح التي شابت صوته فقالت بركة:

- أنا احبك؟ نعم يا خوان. قلت ذلك بالفعل. أنا احبك.

ما القصد من كلماته؟ هل هو يهذي؟ نظرت إلى الطبيب مستفسرة، إلا أنه لم يكن ينظر إليها بل يركز كل اهتمامه على المريض، وفجأة لاحظت التغير الذي طرأ على نظراته، فقد زال منها القلق الذي رآته قبل دقائق فقط، عندما دخل الغرفة وتعرفت إليه لأول مرة. وسألت زوجها والفرح ينقل لسانها:

- أخبرني... عدة مرات، أنك... تحبني؟

- لا بد أني فعلت ذلك في أحلامي...

تغضن جبينه وهو يحاول التركيز، وتابع:

- لقد حلمت مراراً وتكراراً أنك هنا، تقولين لي أنك تحبيني. كنت

أحبك بأنى احبك أيضاً...

انقطع عن الكلام ثانية فأشارت إلى الطبيب بحركة خفيفة مذكورة بأنه من الأفضل أن تغادر الغرفة.

لقد أزعجها ظنّها بأن هذا الحديث سيرهن زوجها، إذ كان واضحاً تماماً أنه أحدث له توتراً كبيراً. لكن الطبيب أشار بيده ثانية ليطمئنها. وسمعت زوجها يقول متابعاً:

- ولدي استيقاظي كنت اجد دائماً انك رحلت...

ثم غمغم بصوت بالكاد سمعته:

- مجرد احلام... تعذبني.

فهمست له:

- حيي، هذا ليس حلماً، انا هنا، معك.

اخذت احدى يديه في يدها وقالت وهي تضغطها برقة:

- خوان، يا أعز الناس الي، انا هنا.

نظرت عيناه القائمتان في عينيها، وراحت اصابعه تستكشف يدها

ورسغها، ثم همس:

- انت هنا حقيقة.

تنهد واغمض عينيهِ قريبر القلب.

استدارت روكان وحذقت الى الطبيب وقد بدت بدورها زائغة

البصر.

فرد الطبيب يده وعيناه تمحوران في وجهها الرائع الجمال:

- انه بالطبع يحبك يا سنيورا. كيف يمكن ان يكون الامر خلاف ذلك؟

ثم نقل بصره الى الرجل المستلقي على السرير، كان يتنفس بانتظام

فابتسم الطبيب راضياً. قالت له روكان:

- اخالك تساءل لماذا تركته مع اني احبه، لكنك ترى، اني كنت اجهل

حبه لي. حسبت...

بترت عبارتها وصمتت...

- سنيورا، كنت تقولين؟

هزت رأسها وقالت ان الامر لا يهم. ففي غمرة هذا الفرح المدهش

الطافح به قلبها، لا شيء في العالم يهم الا حقيقة ان زوجها قد استرجع

الارادة على الحياة.

كانت هناك امور كثيرة تحتاج الى ايضاح فيما بينهما، حوادث محيرة

للطرفين. وقد شرحها لبعضها البعض بالتدريج مع مرور الايام حيث

كانت روكان تزوره يومياً في المستشفى. علمت منه انه بدأ يجيها بعد

الزواج مباشرة، وذهل خوان الى حد الصدمة حين كاشفته بقناعتها بأنه

كان يستغلها كزوجة ليظل يتذكر مارتا من خلالها. وهذا الشق الاخير اثار

غضبه الى حد جعل روكان بعد ذلك تتحفظ كثيراً في كلامها، لكن حين

استوضحها سبب انفجارها وهربها منه عقب حديثها عن حوض السباحة،

اضطرت مرة ثانية الى اخياره السبب بصراحة، فتهف غاضباً:

- اعتقدت بالفعل اني كنت افكر بها هي؟

فانتابها احساس واثق بانه لو استطاع التحرك من الفراش، لامسها

من كتفيها وهزها من شدة الغضب.

وبدأت تقول وهي تقدم علواً اقبح من ذنب:

- لقد ذكرت لون شعري...

- وهكذا ظننت...؟ روكان، كنت تخفين افكاراً غريبة جداً طوال

تلك الأشهر.

لم تقل شيئاً، لكنها اشاحت وجهها عنه وقد اذهلها عجزها الكامل عن

رؤية الامور من زواياها الصحيحة. قال بنبرة الطف بكثير من سابقتها:

- سأعلق دائماً على جمالك فذلك جزء من حيي لك.

ويداً قلقاً وهو يردف:

- روكان، عذبي بان لا تسيئي فهم اي شيء اقله لك في المستقبل.

- اعذك بذلك. كنت بلهاء يا خوان.

لم يحاول مناقضة كلامها، وبعد تردد بسيط غامرت بالقول انه كان

يعاملها احياناً بما يقرب من القسوة وقد عززت هذه المعاملة قناعتها بانها لن

تستطيع الوصول الى قلبه ابداً... فقامت عيناه بالندم وهو يبرر ذلك

بقوله:

- احسنت انك لا بد ان تكرهيني دوماً لكوني تزوجتك بسبب شبهك

لمارتا. ومع مرور الزمن ما عدت اطبق احتمال الوضع. كنت قد احببتك

كثيراً في ذلك الوقت ولذا كان احتقارك وازدراؤك بلسعان جرحي المفتوح

كالبوط وشيران اسوأ ما لدي من طباع. اغفري لي يا حبيبي ما سببه لك

من جراح عميقة.

احسنت انفعالاً خائفاً متعها من الكلام فتابع خوان بصوت مخفوف

بالأم:

- ابتعت لك هدية لعيد ميلادك وكنت اتلهف الى اعطائك اياها...

خف صوته اذ شرد يفكر فقالت وقد اوشكت على البكاء:

- كنت اريد تلك الهدية بشكل يانس يا خوان . . .
توقفت اذ رآته ينظر اليها بحيرة شديدة، فاردت معترقة:
- رأيتها في خزانك. عندما كنت ابحت فيها عن جواز سفري.
وهنا لم تمالك نفسها فسالت:
- ماذا كانت الهدية؟
- حقيقة من جلد التمساح. لكن الهدية الالهة والتي اردتها ان تعبر لك
عن مبلغ حبي، كانت داخل الحقيقة.
توقف مفكراً ثم تابع:
- كانت سواراً من الماس والياقوت. سوف تسلمين الهدية لدى عودتنا
الى البيت.
فهتفت:
- اشمر بخجل رهيب من نفسي . . . استحق عقاباً اليماً على الالم الذي
سببه لك!
تطلعت اليه دامعة العينين واردت:
- كان يجب ان ابوح لك بحبي!
- لا يا عزيزتي، كانت المبادرة مطلوبة مني انا، لكن شعوري بالذنب
حال دون اقدامي عليها. كنت اعلم اني اخذتك عنوة من الرجل الذي
تحبين، او بالاحرى الذي حسبت انك تحبينه . . . لهذا السب لم ألحق بك
عندما هجرتني، اقتعت نفسي وقتها بأن ساجدك مع هذا الرجل الآخر.
فهزت رأسها الجميل وقالت تذكره ببساطة:
- كان حبك وحده المسيطر علي.
صمت قليلاً ثم اردت:
- اوحى نوم الي مرة، اني كنت ارجب ضمناً في الزواج منك، مع اني لم
اكن اعني تلك الحقيقة.
فقال:
- اظن انك وعيتها يا روكسان، والا لما كنت رضخت لضغط والدك.
نظر في عينيها عميقاً فراءت اعماق حبه مرسومة في مقلتيه وقال مذكراً
اياها:
- الم اقل لك مرة، اننا خلقنا لبعضنا بعضاً؟

- اجل، وكنت مصيباً يا خوان.
واضافت بأسى نادم:
- ليتني وعيت ذلك في حينه.
- لا عليك يا حبيبي. كل ذلك صار الآن صفحة مطوية.
في مناسبة اخرى تكلمنا صدقة عن لوبينا. كان كلاهما يعتمد الابتعاد عن
ذكرها، لكن فيما كانت روكسان تحدثه عن عقابها، عندما كان يبدو انها لن
تستطيع ابداً التوصل الى قلبه، زل لسانها بشيء من اقوال لوبينا، ولخولها
من توريط المرأة، توقفت فجأة عن الكلام الا ان خوان استحثها على
المتابعة. ولما امتثلت، استشف انها كانت تختصر اشياء كثيرة فقال بحزم:
- اريد الاطلاع على كل التفاصيل يا روكسان.
فاضطرت عندئذ ان تروي له الحكاية بكاملها، ولما انتهت علق قائلاً:
- كم كنت طفلة مسكينة لماذا، يا حبيبي الغالية، لم تستجدي بي
حيث كنت سارعت الى وضع حد لكل ذلك الشر؟
- كنت اشفق عليها. . . في اعماقي.
- لا ريب انها تستحق الشفقة.
صمت طويلاً ثم اعلمها بهدوء:
- لوبينا كانت والدة مارتا.
- ام مارتا؟
- حدثت اليه بذهول وهي تخبر نفسها بأنها كان يجب ان تحذر هذه
الحقيقة . . .
- ولكن كيف . . .؟
- لقد انجبت طفلاً من رجل مجهول الهوية عندما كانت تعمل لدى
السيبورا لوبيز وتلك بدورها كانت انجبت طفلاً في الوقت ذاته لكنه توفي.
ثم اقتعت لوبينا بان تتنازل عن ابنتها للسيبورا لوبيز . . . واتصور انها
اقدمت على ذلك بسرور فعلي في حينه. لقد احيطت العملية بسرية تامة ولم
يعرف بها الا اصحاب الشأن فقط. انا نفسي، لم اعرف الحقيقة الا بعد
وفاة مارتا. علمتها من لوبينا وكانت يومها في حالة هستيرية من فرط
الحزن.
شرد لفترة وكأنه يستذكر المشهد المريع فلم يحاول روكسان ان تقطع

حبل افكاره . ثم تابع :

- صارت ، على ما يبدو ، اكثر احساساً بملكيتها للطفلة مع مرور الزمن وهكذا اقنعوها بايجاد عمل آخر . جاءت وقتها وعملت لدى ابي ، لكنها لم تُحرم ابداً من حقها في رؤية ابنتها ، وكانت تذهب الى بيت السيور لوبيز في كل اوقات فراغها .

فقالت روكان والحنان يظلل وجهها الرائع :

- مسكينة لوبيتا . هل تظنها ستحظى يوماً بسلام نفسي ؟

اجابها بلطف :

- لقد حظيت به .

ولما حدثت اليه روكان مشدوهة ، اعلمها بقوله :

- تنامي الي صباح اليوم انها توفيت بذبحه قلبية بعد اسبوع من دخولها مصحاً للأمراض العقلية .

- ماتت . . .

احست روكان باختناق في حلقها وامتلات عيناها بالدموع بالرغم من شعورها بأن الموت قد يكون افضل الحلول ، نسبة الى ما كابدت المرأة من تعاسة وعذاب في السنوات الأخيرة .

- يا حبيبي الصغيرة ، لا تبكي .

- يؤلمني التفكير في تعاستها .

- بعد كل الأذى الذي ألحقته بك ؟

- فعلت ذلك بدافع الغيرة وبسبب اختلالها الذهني . ارادتك ان تحب ماروتا الى الأبد .

اوياً مفكراً ، ثم روى لها انه بعد وفاة ماروتا شعر بأن الحياة ما عادت تعني له شيئاً وان لا مستقبل له . . .

- هكذا يشعر المرء عندما يكون شاباً في الثالثة والعشرين . لكن مع مرور السنوات ادركت ان الزمن كفيل بشفاء الجراح وانني سأبدأ صفحة جديدة في الحياة . وقبل أربع سنوات تقريباً بدأت أرمم الاضرار التي لحقت بالبيت والاملاك من جراء الازهال ، ووجدت متعة كبيرة في إعادة كل شيء الى رونقه القديم . اما لوبيتا فقد حقدت علي لاني بدأت انسى ماروتا ، وخطر لي مراراً ان اندرها بترك الخدمة انما كنت اشفق عليها في كل مرة

وهكذا بقيت معي .

فقالت روكان مفكرة :

- كنت بدأت تعيش مجدداً يا خوان لكنك في نفس الوقت عزلت نفسك عن جميع الناس .

- في الواقع لم انقطع عن العالم بصورة مطلقة ، فحين أقيت بنفسي في مصالح العملية ، استطعت ان اشغل وقتي وان احتك ايضاً بأولئك الذين اتعامل معهم . لكن في مكان صغير كهذا ، سرعان ما تزدهر الشائعات ، واتصور ان الناس ابتدعوا قصة تنسكي ليجدوا شيئاً يتسلون به . ثم ان اهلي لم ينقطعوا بناتاً عن زيارتي وفعلوا ذلك في مناسبات معينة . . . مع اعترافي بتدريتها . وفي الواقع ، كنت ارفض استقبالهم في البداية ، ليس لاني لم اود رؤيتهم بل لشعوري آنذاك باني لا اصلح لرفقة احد .

لم تقل روكان شيئاً . كان واضحاً تماماً انه احب ماروتا الى حد الوله انما كان واضحاً كذلك ان ذكراها بدأت تمحي من غيظه منذ زمن بعيد .

هذه المكاشفات المتبادلة تمت بشكل متسلسل اذ ان الطبيب كان حازماً في جعل روكان تتقيد بساعات الزيارات . وهكذا ، وفي مناسبة اخرى ، علمت انه كاد بالفعل ان يقدم على خنق رجل ، او بالاحرى خنق لص تسلل الى البيت ، وقال خوان يشرح ما حدث :

- لقد قاومني وقتها كعفريت ، والطريقة الوحيدة التي استطعت اسكاته بها لينبأ يصل البوليس كانت القبض على عنقه .

وهنا ضحك بجذل واصاف :

- لا تخافي يا حبيبي ، فانا لن اصل ابداً الى حد خنقك مع انك تفقديني اعصابي احياناً .

- لن اعود الى ذلك ابداً .

سكت عن التعليق فقالت :

- خوان . . . رأيتك مرة في الهيكل . . .

لم تكمل اذ خشيت احراجه ، الا انها نظرت اليه متوسلة كما لو انها تصر على معرفة السبب . فقال :

- كنت اصلي صباح كل يوم طالباً من الله ان يجعلك تخميني ولكي تغفري لي بالتالي ما ارتكبته بحقك .

نطق الكلمات ببساطة ويتواضع ويفض من الحب والرقه مما جعلها
تحتفي صوبه بختان. ثم قالت:
- انها لصدفة غريبة، اذ كنت اشعر احياناً بانى لو استطعت معرفة ما
نصلي لاجله لاتضحط طريقي اكثر، فانا فكرت بتركك منذ البداية.
- فعلت ذلك؟

ابتلع ريقه بصعوبة ونبض عرق في جانب فكه، وتابع:
- انا مسرور لكوني لم اعرف في حينه. لماذا اقدمت على تركي في النهاية؟
- اعتقدت اني لن استطيع الوصول اليك... بسبب حبك لمارتا.
ثم اخبرته كيف حصلت على جواز سفرها، فاستعت عيناه دهشة
وقال:

- قالت لوبيتا انها رأتك تخرجين من غرفة مكسي والجواز بيدك، وعندها
استجوبتها حول وقت رحيلك وكيفية سفرك.
- هي التي اردتني ان ارحل ووعدتني بالمساعدة...
توقفت فجأة ثم اردفت:

- دعنا نقفل موضوع لوبيتا المسكينة يا خوان. كانت شريرة فعلاً بسبب
مرضها العقلي انما كانت حزينة جداً في اعماقها، فانا اعرف كيف سيكون
شعوري اذا... اذا فقدت طفلاً.
اخذه يدها في يده وقال بهدوء:

- افهم ذلك ثاماً، والحق معك يا عزيزتي، لا يجب ان نأتي على سيرتها
ابداً، ولندعها ترقد في سلام.

واخيراً، وقلبها يخفق بانفعال شديد خالته سيؤثر على حواسها، وجدت
روكسان نفسها تجلس الى جوار خوان وهما يعودان الى البيت في سيارة توم
الذي اصر على القيام بهذه المهمة الجليلة.
- انك تبدو رائعاً!

كانت قد هتفت عندما دخلت الجناح ورات خوان في كامل ثيابه وقد
استرد لونه الطبيعي تقريباً... ما زال وجهه يذكرها بنسر، انما بنسر لطيف
وليس كطير مفترس... اجل، كان وجهه التسري مغلفاً بالرقه وعيناه
السوداوان تفيضان حباً وسعادة. واجابها وهو يفتح لها ذراعيه ليحضنها:
- مشاعري في قمة الروعة كذلك. اخبريني يا حبيبتي الغالية، كيف

حدث كل ذلك؟

هزت رأسها بحيرة وكأنها لا تعرف من اين تبدأ فاقترح ان تجربه متى
أحبته بالضبط...

- احببتك بالتدريج، وذات يوم وعيت الحقيقة... انك لا تعرف ابداً
متى يبدأ الحب، اليس كذلك يا حبيبتي؟
- كلا يا حبيبتي، اخالنا لا نعرف.

صمت قليلاً فظنته ينتظر قدوم الممرضة التي ستأتي لتعلمها بوصول
توم، لكنه عاد يقول:

- بخيل الي انني احببتك دفعة واحدة يا روكسان... بدأت ارى انك لا
تشبهين في الواقع اية فتاة اخرى، كنت انت، بشخصيتك المميزة التي
جذبتني، بتصرفاتك الصغيرة الخاصة وصوتك العذب الغالي.

شدت ذراعيه بحب حولها وتابع هامساً:
- انت لست سوى حبيبتي روكسان... زوجتي.

ابتعدا عن بعضهما لدى دخول الممرضة التي خاطبت خوان بالاسبانية
وهي تبسم. وعند بوابة المستشفى شكرا الطبيب والممرضة اللذين
شيعاهما الى هناك وتبادلوا عبارات الوداع. كان توم ينتظرهما في سيارته،
وفي تعبير وجهه شيء ما جعل روكسان تسأله:

- هل ربحت ثروة يا توم؟
- ربحت اكثر من المال! اخذت رسالة من فيليس تقول فيها انها ستأتي

لكي... لكي... اخبرني لماذا!
- لتتزوجك بالطبع!

وفي الطريق، انجنى خوان من مكانه على المقعد الخلفي وقال له:
- انا مدين لك باعتذار يا توم...

فقاطعه الشاب بسرعة:
- لا عليك. كل ما يهمني الآن ويفرحني هو ان كل شيء انتهى كما

يجب.
فرد خوان:

- اذن دعني اشكرك على الاقل ومن كل قلبي. انا وروكسان مدينان لك
بهذه السعادة لكونك ارسلت لها تلك البرقية.

بعد ذلك صمت ثلاثتهم، كل مع افكاره الخاصة، وفي الاخير قال
خوان:

- ارجو ان نتلقى دعوة الى الزفاف.

فرد توم بفرح ظاهر:

- سيشرفنا ذلك كثيراً يا دون خوان.

عاد الصمت بنعيم عليهم الى ان توقف توم امام المدخل وسلم عليهما
مودعاً. شكراه على ابصاليهما ووقفنا متشابكي الايدي يراقبان السيارة حتى
اختفت عن البصر.

استدارت روكسان تنظر الى المنزل الابيض المهيّب الغارق في اشعة
الشمس، وهمست متشبة:

- عدنا الى بيتنا.

- اجل، عدنا الى بيتنا.

ردد خوان عبارتها بحرارة. وبدون ان يقلنا اصابعهما المتشابكة، ارتقيا
الدرج الرخامي متمهلين، فيما الباب المفتوح يرحب بقدميهما.

تحيين الدقائق

من قلب الأشياء الميتة تولد أحياناً زهرة. وهناك دائماً بارقة
أمل في قلب اليأس تطل وتغشى دون حوان وامبريز فكر ان
موت خطيته هو نهاية العالم. أخلق على نفسه ابواب الحياة
وخل يعيش بعيداً عن الناس في مزرعته الوحشة طيلة عشر
سنوات. ولكنه صدفة يلتقي روكسان الجميلة، زهرة مجتمع
سمع بها قبل ان يراها. انها صورة طبق الأصل عن خطيته،
وهذا يحد ذاته كاف ليجعله يخرج من عزلته بحثاً عن شعاع
مستحيل

كيف يلتقيها بوجه وهي ترتعش خوفاً كلما رآته، هذا الرجل
الذي يلقبونه «بالنسر الأسود» لأنه يشبه طائراً جارحاً؟
والسراب الذي وجدته وتثبت به كالغريق، كيف يحوله الى
حقيقة؟